٢٥١

HARLEQUIN

روايات احلام

زائر الليل

كيم لورنس

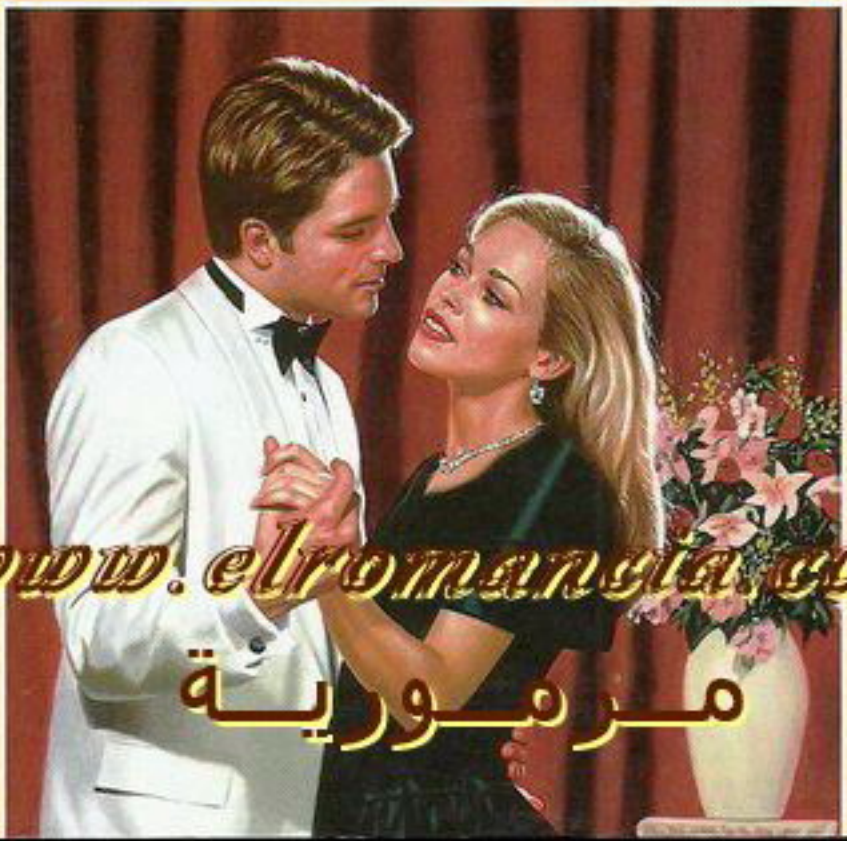

www.elromancia.com

مرمورية

زائر الليل

أقسمت هولي، عندما كانت مراهقة، أنها ستجعل نيال ويسلي يندم على تصرفه معها. ففي المرة التالية التي ستراه ستكون جميلة جداً وسيقف عند عتبة بابها متوسلاً!.

وبعد مرور السنوات تحقق ما أرادت.. ربما لم تصبح جميلة جداً، ولكن ها هو نيال يتوسل إليها ولو لأسباب أخرى.. فمن أين ستبدأ؟

- اكوِ لي ثيابي!

نيال ويسلي نجم سباق السيارات سابقاً، رئيس امبراطورية نشر حالياً، لورد أوف مونكسلي مستقبلاً، يكوي لها ثيابها!.. كانت هذه بداية السهرة التي لن تنتهي عندما يضع نيال خاتماً في إصبعها، أو حتى عندما تكتشف كم كانت عمياء عندما تعلقت بهذا الرجل المغرور الذي لا يطاق.. فكل الحكاية بدأت الآن...

لبنان: ٢٥٠٠ ل.ل.
سوريا: ٧٥ ل.س.
الأردن: ١,٥ دينار
الكويت: ٧٥٠ فلس
الإمارات: ١٠ دراهم
قطر: ١٠ ريال
البحرين: ١ دينار
السعودية: ١٠ ريال
المغرب: ١٥ درهم
تونس: ٢ دينار
عمان: ١ ريال

ISBN 9953-15-084-2

كيم لورنس

تقيم كيم في مزرعة ريفية في قرية «أنغلسي». تمارس رياضة الجري كل يوم، فتركض مسافة ميلين، وهي تجد في ذلك فرصة لتنشّق الهواء النقي والبحث عن وحي لكتاباتها! تساعدها هذه الرياضة على مجاراة زوجها وابنيها النشيطين ومجموعة الحيوانات الأليفة المحيطة بهم. تعشق كيم قراءة الروايات الخرافية، وهي تحب الكتابة والتأليف بالمقدار نفسه، وتروقها النهايات السعيدة!

www.elromancia.com

١ ـ العَهْد . . . !

رنَّ جرس الباب رنيناً متواصلاً، ليوقظ هولي من نومها فوضعت الوسادة على رأسها، وأصرت على عدم مغادرة الفراش. فصرت على أسنانها وسدّت أذنيها، وانقلبت على ظهرها باستياء واضح.

لكن الرنين لم يتوقف. فرمت الوسادة بحنق شديد، لتصطدم بآنية من البورسلين، وتوقعها أرضاً.

نظرت هولي إلى القطع المبعثرة، لكنها لم تهتم للأمر كثيراً، ذلك أن شقة أختها روينا هذه، الواقعة في أعلى ناطحة سحاب، مليئة بأمثال هذه التحف المبتذلة.

ألقت نظرة حولها بحثاً عن رداء. فمع أنها انتقلت إلى هنا منذ أسبوع، إلا أنها لم تجد فرصة بعد لكي تفرغ ثيابها من الحقيبة. . لذا وجدت أن بيجامتها تفي بما تتطلبه الحشمة إن لم يكن أكثر. ومن غير المحتمل أن يخر أي رجل عند عتبة الباب، صريعاً لرؤيته إياها.

ـ نعم!.

قالت هذا بحدة وهي تفتح الباب.

ـ أريد أن أتحدث إلى «روينا».

فكرت هولي بأن الجميع يودّ ذلك، لكن هذا أول رجل يتمكن من

اجتياز مكتب رجال الأمن المتشدّدين في المبنى، ما يعني أنه زائر مرغوب فيه، في الظروف العادية.

رفعت هولي شعرها الكثيف النحاسي اللون عن عينيها، وقالت بنفاد صبر وهي تطرف بعينيها إزاء الضوء الوهاج في الردهة:

ـ حسناً، إنها ليست... آه، أهذا أنت؟

بدا عدم التصديق جلياً على محيّاها، وارتسم الضيق على وجهها. لم يكن «نيال ويسلي» بالرجل الذي يمكن أن يتركه أحد واقفاً عند العتبة، ولا هو بالرجل الذي يظهر على بابها عندما تريد، إلا أنه لم يكن من المألوف لديها أن يظهر أشخاص بوسامة «نيال» عند عتبة بابها في الثامنة صباحاً، مرتدين بذلات العشاء الرسمية.

ـ هل أعرف من...

واكتسحت العينان الزرقاوان الوهاجتان جسمها الصغير.

ـ آه، أنت «بولي»، أليس كذلك...

وتوجّه بقامته الأنيقة إلى غرفة الجلوس الواسعة.

أعلم أنني أحدث في نفسه تأثيراً عميقاً! ومثل هذا الأمر، يعطي الفتاة ثقة عظيمة بنفسها...

أخذت تفكر في ذلك بسخرية مرّة. ونظرت، بامتعاض متزايد، إلى ظهره وكتفيه العريضتين قبل أن تقول ببرودة.

ـ اسمي هولي.

فأجاب بابتسامة غير مكترثة وهو ينظر في أنحاء الغرفة.

ـ هل أصبت بحادث أو ما شابه؟

كانت قد نسيت الأمر كلياً! فمدت يدها بحركة لا إرادية إلى عينها اليمنى، ثم هرعت إلى إحدى المرايا الكثيرة في الشقة.

ـ ما شابه.

قالت هذا بجفاء بعد أن ابتلعت ريقها وهي تعاين الاصابة فهي ليست سيئة للغاية، وقليل من مساحيق الزينة كفيل بأن يخفي معظمها.

ـ متى تعود «روينا؟».

سألها وهو ينظر إلى ساعة يده السوداء الثمينة. وراحت «هولي» تتأمل الشعر الداكن الناعم الذي يغطي ساعده فخفق قلبها. رباه، حتى كأنني ما زلت تلك المراهقة المفتونة..!.

وتذكرت فجأة ذلك العهد الذي قطعته على نفسها في آخر مرة رأت فيها نيال... وما كان أشد تأثيره على تفكيرها، آنذاك.

لقد تعهدت على نفسها أنها، عندما ترى «نيال ويسلي» مرة أخرى، لن يكون في وجهها أي أثر لحب الشباب، ولا على جسدها صدار مدرسة، ولا لشعرها علامات الاحمرار!.

وبالفعل تحقق الأمران الأولان، ولكن ما أدهشها أن تكتشف بمرور الأيام، أن بعض الرجال يحبون، في الواقع، الشعر الأحمر!.

لكنها الآن بعينها التي يحيط بها السواد، وبيجامتها التي لا علاقة لها بمسائل الإغراء... لا بدّ أن تبدو له كفتاة ساذجة تافهة.

وأدركت أن الحلم الذي لطالما راودها في أن يكون لها تأثير على هذا الرجل لم يتبدّد نهائياً، ما جعلها تقطب جبينها منزعجة.

ـ سألتك متى ستعود روينا؟

أطبقت هولي فمها بحدّة. كانت لا تزال مستغرقة في أفكارها، تتأمل شعره الكث الذي تتمنى أي فتاة أن تتخلله بأصابعها، وشعرت بأنّ مخيّلتها بحاجة ماسة إلى دورة في مدرسة الطاعة.

ـ بعد ستة أشهر.

ـ ماذا؟

صرخ بذلك مستنكراً مقطب الجبين.

ـ لا تنظر إليّ هكذا. ليس ذنبي أنها لم تخبرك.

كانت تعلم أنه رجل جذاب، حاضر البديهة والنكتة، لا يدخل مكاناً، إلا وغمره بسحره. ويبدو أنها الوحيدة التي تمكنت من أن ترى أي إنسان أناني مغرور يكمن وراء المظهر الآسر، الذي يقابل به الآخرين. وفكرت في

أن زوجته السابقة قد أدركت هذا في النهاية، فتركته.

ـ يا إلهي... في الوقت الذي أنا بأمس الحاجة فيه إليها، إذا بها.. أين هي؟

ها هوذا لا يفكر إلا في مصلحته... أنا، أنا، أنا... يا له من رجل مغرور. وأخذت تنظر إليه وهو ينهار جالساً على إحدى تلك الأرائك الجلدية، بابتسامة صغيرة ساخرة.

وتلاشت ابتسامتها. كانت متأكدة من أنه سبق له أن انهار على هذه الأريكة من قبل! أترى هذا هو الشيء الوحيد الذي قام... بل قاما... به هناك؟ وجدت نفسها تتساءل قبل أن تجيبه:

ـ في نيويورك.

وابتلعت ريقها وهي تسدل على تصوراتها هذه غطاءً كثيفاً. ذلك أن ما تفعله أختها في بيتها مع هذا الرجل، أو غيره، لا شأن لها هي به.

ـ هذا هو الأمر، إذن.

قال ذلك متجهماً، ثم أسند رأسه إلى الخلف وأغمض عينيه.

ـ أي أمر؟

أدركت «هولي» مما ارتسم في عينيه أنه نسي كل شيء عنها. ربما كان يتمنى لو تبتعد عنه، فيطلق العنان لأسفه على نفسه.

ـ لن أبارح مكاني حتى أعثر على...

ورمقها فجأة بنظرة أمل، وعندما بلغت نظرته المتفحصة أصابع قدميها، كان يهز رأسه.

ـ ما الذي تفعلينه هنا، على كل حال يا بو.. هولي؟

سألها وهو يعجب لماذا تلبس امرأة مثلها بيجاما مخططة.

ـ انتهت مدة ايجار الشقة التي كنت أعيش فيها. فدعتني «روينا» إلى الإقامة هنا إلى أن تستقر أموري.

كان عقدها الجديد لستة أشهر فقط، وبعد ذلك من يعلم أين سيحل بها المطاف؟

أومأ برأسه دون أن يتظاهر ولو بشبه اهتمام بما تفعله حالياً، أو في المستقبل، أو بما فعلته منذ رآها قبل عشر سنوات تقريباً.

كان نيال واحداً من أجمل الطلاب وألمعهم في الجامعة، وكانت أختها من ضمن هذه المجموعة التي عرفت باسم «الدائرة الساحرة» فقد غزوا العالم، مهنياً على الأقل. ولم يكن نيال هو الوحيد في الدائرة الذي افترق عن زوجته. لكنه كان الأكثر شهرةً بين الناس.

ـ ما الذي تفعله «روينا» في نيويورك؟

ـ ستستلم تحرير المجلة هنا. فحين تحصل «أنابيل» على الترقية بعد ستة أشهر ستحل محلها. إنهم يريدون «روينا» لكي...

وهزت كتفيها.

ـ لا أدري ماذا يريدونها أن تفعل بالضبط. لكنهم أرادوها أن تذهب إلى هناك.

هذا يفسر ربما سبب جهل «نيال» بالأمر. ذلك أن العمل في مجلة الأزياء تلك، كان كتاباً مغلقاً بالنسبة إليها. كان واضحاً أن اهتمامه أكثر من مجرد شعوره بالضيق! وحمدت الله على أن ليس لديها أصدقاء مثله.

ـ أنا واثقة من أنها كانت سترفض لو علمت مسبقاً بحاجتك الماسة هذه.

كان صوتها العذب مبطناً بالتهكم. فألقى نيال عليها نظرة حادة، ولم تخدعه البراءة المصطنعة في عينيها... بل بدت له كساحرة بعينيها الداكنتين الواسعتين، وشعرها الأشعث.

ـ أنا سعيد جداً لأجل «روينا»، لأنني أعلم أن هذا ما كانت تصبو إليه وتخطط له في السر. إنها امرأة تعرف تماماً ما تريد من الحياة ولا تتوقف عن السعي إليه.

وتابع يقول.

ـ لكنني فقط تعيس لأجل نفسي.

ـ نعم، لا بد من أن الأمر بالغ الصعوبة.

قالت هذه معزية، وعلى وجهها مزيج من الاستفهام والضيق، بينما كانت تتابع:

ـ بما أنك غني ووسيم...

لكنها لم تذكر التركة الضخمة، واللقب اللذين سيرثهما عند وفاة أبيه.

نظر إليها مترفعاً شامخاً بأنفه المميز المستبد المماثل لأنوف أجداده الذين رأت صورهم على جدران منزل أسلافه «قصر مونكسلي». وقد زارته في اليوم الوحيد في السنة الذي يُفتح أمام الزائرين الذين يقفون مسمّرين إزاء ثراء «آل ويسلي» وتاريخهم.

ـ شكراً لك.

قال ذلك باسماً، فشعرت فجأة بتلك الابتسامة العريضة تخطف قلبها. فسألته بارتياب:

ـ لماذا الشكر؟

فألقى عليها نظرة ماكرة: «وسيم..؟».

فتأوهت ساخطة: «وكأنك لا تدرك ذلك».

فهز كتفيه بتواضع، ولكن وراء الهزل الساخر في عينيه، خيّل إليها أنها لمحت شيئاً من القبول الحذر. أتراه يشعر بالضيق من إجماع الناس على وسامته المذهلة؟ لكن هولي عادت فنبذت هذه الفكرة بعبوس. من ذا الذي يكره أن تتوقف الأحاديث عند دخوله غرفة ما؟

ـ ماذا كنت تريد من روينا، على كل حال؟

وظنت لحظة أنه سيطلب منها أن تهتم بشؤونها الخاصة. لكن شفتيه الجذابتين انفرجتا بابتسامة ساخرة:

ـ كنت أريد أن أطلب منها أن تكون خطيبتي الليلة.

شهقت هولي عالياً وهي ترتمي على أقرب مقعد.

ـ أردت أن تطلب من روينا أن تتزوجك؟

ـ وهل قلت أنا ذلك؟

ـ أنت قلت إنك تريدها أن تكون خطيبتك؟

ـ أنا مصمّم على عدم الزواج مرة أخرى. أريد خطيبة فقط لهذه الليلة، لأن في رأيي أن السبب الحقيقي المقنع للزواج، هو إنشاء أسرة. وقد سبق وقمت بذلك مرة. وكفى.

لو إنها لم ترَ «تارا» الرائعة، لاقتنعت بنظريته، فقالت هازئة:

ـ أتريدني أن أصدق أنك تزوجت «تارا» لإنجاب الأطفال ليس إلا؟

لم تكن خبيرة بطبائع الرجال، لكنها لم تصادف قط رجلاً رأى عارضة الأزياء اللامعة تلك، ثم فكر في الأطفال. فقال متجاهلاً ملاحظتها المتشككة:

ـ روينا هي، ربما، الوحيدة التي يمكن أن أفكر في...

على الرغم من الغيرة التي شعرت بها، استطاعت أن تقول: «لست أفهم ما تعنيه».

أتراه طلبها للزواج فرفضته؟ أخذت تتساءل عن هذا وقد نشطت مخيلتها. ذلك أن لدى روينا فكرة متصلّبة عن الزواج والمهنة، ولطالما قالت إنه يستحيل على المرأة أن تجمع بينهما إذا كانت تريد أن تنجح في أيّ منهما.

ـ أنت فقط لا تصغين. الأمر غاية في البساطة، أنا أريد من روينا أن تدّعي أنها خطيبتي هذه الليلة.

ـ تدعي؟

كان هذا الرجل ينطق بهذه الكلمة بشكل طبيعي جداً.

ـ ولماذا؟

وتنحنحت وتابعت تقول قبل أن يقول لها إن هذا ليس من شأنها.

ـ هل من عادتك المجيء إلى هنا صباحاً لتطلب أموراً كهذه؟

ـ هل قلت... صباحاً؟

ورفع إليها عينيه الزرقاوين.

ـ ماذا إذن...؟

وحدقت فيه بعنف وهي تقف. لكن هذه الحركة المتكبرة أُحبطت لتعثرها بساق البيجاما الطويلة. وتوقعت أن يبتسم ساخراً فألقت عليه نظرة

تحذير، لكنه لم يكن يفعل ذلك.

خطر في بال «نيال» للمرة الأولى أن هذه البيجاما هي في الواقع، لرجل. ولأمر غريب، شك أنها ربما كانت تشارك رجلاً في الغرفة الأخرى. وعلّل ذلك بأنها ما زالت، حاضرة في ذهنه... أخت روينا، تلك الصغيرة العنيفة المشاعر التي ترتدي زيّ مدرسة. ونظر إليها متفحصاً...

وتملك نيال شعور كئيب مفاجيء بأنه اجتاز شرخ شبابه.

ـ لسنا في الصباح.

سرعان ما استحال عدم التصديق البادي على وجهها ذعراً.

ـ في أي يوم نحن؟

سألته هذا بعد لحظة عبوس، فطرف بجفنيه. لم يحدث قط أن مرّت به ليلة بهذا العنف!.

ـ إنه مساء الأربعاء.

وأخذ ينظر إليها وهي تعود فتهبط على كرسيها الذي كانت تركته لتوّها، وسألته:

ـ هل أنت جاد؟

ـ أي يوم كنت تظنينه؟

ـ ظننته صباح الثلاثاء.

ـ لا بد أنك حضرت حفلة ما.

رغم أن هولي المذهولة كانت لا تزال تحاول أن تتعوّد على حقيقة أنها بقيت نائمة على مدار الساعة، إلا أنها لم تغفل عن تلك النبرة المستهجنة في صوته.

ـ أنت تتكلم مثل أمي.

لم تكن أمها تستهجن ذهابها إلى الحفلات، وإنما الساعات التي كانت ابنتها الصغرى، تمضيها في عملها كطبيبة حديثة التخرج. ربما لم تكن حفلة توديعها بعد ستين ساعة من العمل المتواصل في قسم الطوارىء، فكرة صائبة. لقد قالت مازحة إنها ستمضي إجازتها في النوم! وراح نيال يتخيل

هذه الفتاة وأصدقاءها يفسدون الشقة، فقال محذراً:

ـ أرجو أن تحافظي على أثاث روينا أثناء وجودك هنا. هل تعلم بوجودك؟

تملك هولي شعور بالذنب نحو هذا الرجل الرائع. وفكرت بكآبة، في أنه لو بدا لها بهذا الغباء عندما كانت في السادسة عشرة، لما خسرت ليلة نوم واحدة لأجله.

ألقت عليه نظرة لاذعة كفيلة بأن تجعل أي إنسان ينكمش مكانه.

ـ لقد انكشف سري، فأنا محتلة غير قانونية هنا... إنني بحاجة إلى شراب. لا... لا تقلق، أعني قهوة.

ـ أتشعرين بالاضطراب من حفلة أمس؟

فقالت غاضبة: «لا!».

وأخذت تفتح الخزائن بحثاً عن البن، دون جدوى. أحست به يتبعها وكأنه معتاد على هذا المكان. وأثبتت كلماته التالية إلفته لما حوله.

ـ البن هنا.

قال وهو يمد يده إلى إحدى الخزائن.

ـ كانت روينا تشرب دوماً قهوة فورية.

خطفت هولي البن من يده قائلة:

ـ لا أعرف أماكن الأشياء في المطبخ بعد. فأنا في الواقع، لم أحضر إلى هنا منذ مدة طويلة.

ـ أريدها سوداء.

وعندما نظرت إليه بحيرة، تابع:

ـ أحب القهوة سوداء ودون سكر.

كان الفضول يتآكلها فسألته:

ـ لماذا تريد خطيبة لليلة واحد فقط؟

ـ أنا ذاهب الليلة لتناول العشاء مع امرأة تريد أن تتزوجني.

عضت هولي شفتها السفلى المرتجفة. كادت تنفجر ضاحكة للهجته

المثقلة بالتشاؤم والشعور بالضعف. ورأت الجاني والضحية يتبادلان الأدوار.

ـ وأنت تريد استعمال روينا كدرع؟

استطاعت أن تعرف على الفور إلى أين كان ذاهباً. كانت شقيقتها من الجمال بحيث كانت معظم النساء يرهبنها. في حين أمضت هي سنوات مراهقتها بأكملها تتملكها الرهبة من جمال أختها الأخاذ.

ـ وكيف علمت بأن تلك المرأة تريد أن تتزوجك؟

ألا يمكن أن يكون شعوره هذا مجرد غطرسة وغرور من رجل يعلم مدى جاذبيته للجنس الآخر؟

ـ أخبرتني ذلك بنفسها.

فرفعت حاجبيها.

ـ ربما كانت تمزح.

فضحك بجفاء ثم قال بقلب مثقل.

ـ صدقيني أنها لم تكن تفعل ذلك.

ـ كيف يمكنك أن تكون بهذا الشكل من..؟

ـ إنها «تارا».

سقطت علبة الحليب من يد هولي، وانسكب على المائدة، وهي تسأله بصوت هائج:

ـ هل هي تارا نفسها...؟

وإذ بدا على هولي فقدان الاهتمام بتحضير القهوة، تولى هو المهمة عنها.

ـ نعم، المرأة نفسها التي تزوجتها ثم طلقتها. وأم طفلي... نعم، إنها هي.

ـ عجباً! ظننتها تعيش مع ذلك الممثل في...

ـ إنها تعيش الآن حيثما أكون.

قال هذا بلهجة من أنهكه الصبر.

ـ كنت في باريس فإذا بها تلحق بي إلى هناك، ثم حدث ذلك في لوس أنجلس...

ـ لكن الأسفار الكثيرة من عادة عارضات الأزياء.

ـ وماذا عن سفرها إلى المعرض العالمي للكتاب في ميونيخ...؟

ـ ربما ليس لأجل ذلك.

ـ لا مكان لكلمة (ربما) في هذا الأمر.

ـ أليست هي التي طلبت الطلاق؟

أومأ إيجاباً، ملاحظاً أن البهجة بدت عليها إذ تذكّره بذلك.

ـ إنها تقطر ندماً الآن وهي تريد أن نعود إلى بعضنا.

لم يبدُ سعيداً لهذه الفكرة. فاستغربت هولي الأمر، ذاك أن تنازل تارا عارضة الأزياء المتفوقة ذات الساقين الطويلتين والصدر الناهد المثير، كفيلٌ بأن يجعل أي رجل يطير فرحاً.

ـ لماذا لا تخبرها فقط بأنك لا تريد الزواج بها مجدداً؟

كان يبدو لها أنه يختلق مشكلة من لا شيء، وأن الأمر كله مجرد مقاومة رمزية. وأذهلها بقوله:

ـ لقد حاولت ذلك، لكنها لا تصدقني، وأنا لا أريد أن أؤلمها. لقد سببت الصحف للملاكي الصغير أذىً شديداً للغاية عندما افترقنا، وعندما حصلت على الوصاية لابني «توم» ازدادت شراستها.

كان الدفء واضحاً في حديثه عن زوجته السابقة.

ـ كم تريدين من السكر في القهوة؟

(الملاك الصغير)؟ ونظرت إليه ذاهلة غير مصدقة. لقد ذكرت الصحف التي قرأت كل حرف فيها، كيف ألقت به زوجته وكأنه نفاية قذرة، وتركته بكل بساطة، حاملاً ابنه! هل هذا يعني أنه ما زال يحبها...؟

وثار غضبها وهي ترى اهتمامها البالغ بمشاعره. منذ دقيقتين، رأته عاشقاً لروينا. وظهر واضحاً اهتمامها بذلك.

بدا شارد الذهن تماماً وهو يحرك السكر في قهوته. ثم قال بلهجة تنذر

بالشؤم:

- تارا تريد أن تنقذني من حياة الوحشة وانعدام الهدف.

- وهل حياتك موحشة عديمة الهدف حقاً؟

ألقت عليه هذا السؤال دون تردد. إذا كان هذا صحيحاً فلا يلومنّ أحداً سوى نفسه.

- العزوبة، في نظر تارا، تقترن بالوحدة وانعدام الهدف.

- إن قلبي ينزف دماً.

وتوقفت دفعة واحدة عن الابتسام المصطنع، وهي تحملق ببراءة، عندما قذفها بنظرة عنيفة متوحشة:

- إنني مستمتع بعزوبيتي.

- نعم، أظنني قرأت شيئاً عن هذا في الجريدة التي كان السندويش ملفوفاً بها.

لقد كان يستمتع بعزوبيته في المقعد الخلفي من سيارته الليموزين مع ممثلة صغيرة السن لعوب.

وقال متجهماً، وبدا الغيظ في عينيه وهو يحني رأسه مقرّاً بكلماتها الماكرة.

- الهزيمة هي جزاء التهذيب، لو لم أكن رجلاً مهذباً، لقلت لك الكلام نفسه الذي قلته حينذاك، للمصوّر. لمعلوماتك الخاصة، كان ذلك عملاً مدبراً للفت النظر.

وأخذ يصرف بأسنانه، بينما أخذت هولي تضحك وهي تقول مخففة عنه:

- كان طبعاً كذلك. أما كان بإمكانك أن تطلب منها، ماذا كان اسمها، أن تساعدك على الخروج من محنتك؟ يبدو أنها من النوع الخدوم للغاية.

واختنقت الكلمات في صدرها وعضت شفتها المرتجفة تمنع نفسها من الضحك، فصاح غاضباً.

- لا. لم أستطع. لم أقصد قط، في الواقع، أن أبرز امرأة. إنما ظننت أن تارا ستقبل بالأمر إذا أنا أخبرتها بأنني وقعت في الحب.

وبدا عليه الاحباط التام لعدم تعاونها معه. فسألته بحيرة:

- أتعني أنها لا تتقبل منك ما تقوله ظاهراً؟ هذا غريب.

- كل ما في الأمر هو أنني لا أكذب على تارا.

رفعت هولي حاجبيها متسائلة فيما تابع موضحاً:

- أنا في العادة، لا أكذب، لكن هذه الكذبة الآن لمصلحتها.

- دون ذكر لمصلحتك.

- قلت إنني سأعرّفها إلى هذه المرأة ظناً مني أن روبنا ستأتي لمساعدتي. وإذا بي أجد الأرض قد انشقّت وابتلعتها والآن لم يعد أمامي سوى نصف ساعة تقريباً لأجد شريكة تمثل دور العاشقة.

- كنت أظن أن لديك سرباً كاملاً من الفتيات الجميلات يتهافتن ليساعدنك في محنتك هذه.

رفع عينيه إليها وأوماً بحزن:

- المشكلة هي أنهن لن يكن سعيدات مثل روبنا، عندما يخلعن الخاتم في الصباح. فأنتهي من مشكلة لأقع في أخرى.

- يا إلهي، لا بد أن من الصعب أن يكون المرء ذا جمال لا يقاوم.

وتأوهت. فنظر إليها نيال مفكراً:

- كان عليّ أن أطلب منك أن تساعديني بذلك...

وسكت تأدباً عندما زفرت بازدراء.

- ولكن لديّ انطباع بأنك لا تميلين إليّ. هذا إلى أنك لست بالضبط...

وحولّ عينيه بلباقة عن بيجامتها المخططة وقد كسا وجهه الألم.

- أنا لست بالضبط ماذا؟

سألته بارتياب. ولكن، هل هي بحاجة إلى أن تسأله؟ كان يعني أن لا أحد سيصدق أن رجلاً مثله قد يرغب في الزواج من فتاة مثلها.

رفعت ذقنها بشكل عدواني. فهي لم تعد تلك الفتاة الصغيرة التي ذاقت التعاسة والذل والتحقير بسبب تعليق قاسٍ لا مبالٍ. وعليها الآن أن تجعل «نيال ويسلي» يعرف ذلك.

ـ ملابسك لا تصلح تماماً للمناسبة.

كان سعيداً جداً لأن يتذكر أن روينا قالت له مرة إن الطريقة الفضلى لجعل أختها تفعل شيئاً، هو أن تمنعها عنه.

فهي عنيدة للغاية. لكنها لم تذكر له بأن سبب ذلك هو أنها تظن الآخرين متحاملين عليها. لم تكن هولي لتدعه يتملص من مأزقه معها بسهولة، فقالت تعنّفه بسخرية:

ـ لديّ ثياب أخرى.

ـ أنا واثق من ذلك.

قال ذلك بلطف بالغ. وجعل لمعان عينيه هولي تقطب جبينها وهي تشعر فجأة بقلة ثقة بما تفعل، بينما كان هو يتابع.

ـ لا ينبغي أن تسرعي.

ـ أسرع؟

ـ هذا إذا كنا نريد الوصول إلى العشاء في الوقت المناسب.

ـ وما الذي يجعلني أساعدك؟ أنا لم أقل إنني سوف....

فقال ببطء متفهماً:

ـ حسناً، إذا كنت لا ترين نفسك صالحة لهذه المهمة...

وهنا، تأكدت هولي أنها تخضع لتأثير رجل خبير، ولكن طبعها العنيد، وعدم قدرتها على التراجع عن التحدي، جعلها تستجيب على الفور.

ـ أنا أتنازل عن كل كلام فارغ قلته لك.

فقال بلطف:

ـ لا تهتمي بذلك. يمكنني الاحتمال.

كتم ابتسامة عريضة وهو ينظر إليها سائرة إلى غرفة النوم، وهي تتمتم بصوت غير مسموع!

بعد عشر دقائق، أنهت حمامها، وعادت إلى غرفة النوم بخطوات واسعة رشيقة كقطة ناعمة. ثم فتحت حقيبتيها.

أخرجت أشياء عديدة، ثم نظرت إلى المرآة، وراحت تتأمل بنظرة ناقدة، مستديراتها الرقيقة. لم تكن تلك رائعة الجمال، لكنها ليست سيئة أبداً. أمسكت بثوب حريري رمادي، ثم بدا المكر في عينيها.

وقفت خلف الباب، ثم فتحته قليلاً، وقذفت بالثوب إلى الخارج وهي تقول بصوت مرتفع:

ـ كن لطيفاً واكوه لأجلي، إذا كنت لا تريد أن نتأخر.

وقبل أن يجيب كانت قد أقفلت الباب تماماً.... نيال ويسلي نجم سباق السيارات سابقاً، ورئيس امبراطورية الأسرة للنشر حالياً، «لورد أوف مونكسلي» مستقبلاً... رجل كهذا يكوي الثياب..؟ هذا الرجل الذي أمضى حياته محاطاً بالخدم، والذي ربما لم يتعلم بعد كيف يربط شريط حذائه!.

كان شعرها النحاسي الكثيف لا يزال رطباً عندما سرّحته، وتركت بعض خصلاته تنسدل حول وجهها.

ثم تعطرت وانتعلت حذاءً عالي الكعبين فلم يبق أمامها سوى ارتداء الثوب.

لم يكن بين النقرة الخفيفة على الباب وفتحه، إلا ما يكفي من الوقت لكي تستر جسدها العاري بمنشفة صغيرة، وظهرت على ملامحها إمارات السخط الحاد.

فجمدت مكانها بدون حراك. وراحت عيناه تجولان في أنحاء جسدها من الرأس حتى أخمص القدمين، مذهولتين، ثم قال:

ـ كنت على حق.

كانت الحرارة تعم جسدها بأكمله ولكنها قالت لنفسها إن نيال ويسلي شاهد في حياته نساءً جميلات أكثر مما تناولت هي وجبات ساخنة، وأن جسدها لا يعدو كونه مقبول الشكل. ولكنه مع ذلك، لم يكف عن الشعور

بهذه الموجة العنيفة التي اجتاحته. لقد كانت بالفعل مشاعر محمومة دافئة.

ـ تفضلي.

ناولها الثوب الذي كان يتدلى من ذراعه.

ـ شكراً.

ومدت يدها نحوه، دون وعي، فأدركت أن المنشفة كادت تقع، فشهقت بذعر وأعادتها إلى مكانها.

ـ الأفضل أن تترك الثوب على السرير.

وتهدج صوتها وهي تجاهد لاستعادة السيطرة على نفسها.

ـ أسرع، من فضلك.

قالت هذا بحدة وهي تراه يسير نحو السرير متمهلاً.

ـ لا نريد أن نجعل زوجتك تنتظرنا.

وضع الثوب الناعم على السرير، ثم أخذ يسوّيه براحته. وجعلتها حركته هذه تتصور اليد نفسها تلامس جسدها.

استقام في وقفته وقال يذكرها برقة:

ـ بل زوجتي السابقة. وتارا لم تلتزم بموعد في حياتها، حتى في حفلة زفافها، كما أذكر... لذا خذي وقتك.

ـ الآن تخبرني بذلك.

وتأملت وسامة «نيال ويسلي» فشعرت بالوهن... يا إلهي... هتفت في أعماقها بذلك عندما استدار، ومنحها ابتسامة. وأخذت تشعر بالقلق فيما إذا كان قد قرأ أفكارها... سأكون مسرورة حقاً عندما تنتهي هذه الليلة.

***

٢ ـ تارا

ـ الوقت لا يسمح لنا با ختلاق قصة، لذا عندما نصل إلى هناك دعيني أتولَّ الحديث.

قال نيال هذا وهو يتفقدها بنظرات صارمة قوية.

ـ وهل أدّعي أن لدي التهاباً في الحنجرة، أم أن حسن حظي في الحصول عليك قد أخرسني؟

أمسك بيدها، وقبل أن تتمكن من الاحتجاج، وضع في إصبعها خاتماً وهاجاً من الياقوت الأزرق، وقال وهو ينظر إلى تأثير تلك الجوهرة المتألقة على إصبعها النحيل.

ـ بل مثل هذه الملاحظات الذكية هي ما أتحدث عنه.

فقالت وهي تشهق:

ـ لا أستطيع أن ألبس هذا الخاتم.

ـ آسف إذا كان لا يوافق ذوقك، لكنه لليلة واحدة فقط.

لا يوافق ذوقي؟ إنه رائع الجمال وربما ثمين للغاية.

وتمتمت تقول:

ـ إنه واسع، وقد أفقده.

وشعرت بصدرها يضيق وتملكها الذعر. ربما هو بمقاس إصبع تارا تماماً... أتراه كان صنع لأجلها؟ هذا الاحتمال جعلها تسرع في خلعه من إصبعها.

وقال نيال ببساطة:

- هذا الخاتم قديم الطراز لم ترغب «تارا» فيه قط. كان لجدتي.

- لا أظن تارا ستصدق هذا، يا نيال.

- إذا حرصت على عدم نبش أمور ملغومة أو الألغاز، فهي ستصدق الأمر. إنها لا تشك في كلامي لأنني لم أكذب عليها مطلقاً. وما من سبب يدفعها إلى ذلك الآن.

أخذت هولي تعبث بالخاتم في إصبعها وتقول متحدية:

- مطلقاً؟

فأجاب بحزم:

- أبداً، إلا إذا استثنينا إحدى المناسبات التي أعلنت فيها أن لا شيء أحب إلي من قضاء ظهيرتي في رؤية عرض الأزياء.

- ما يحيرني هو أن ينهار مثل هذا الزواج المؤسس على الصدق.

ذلك أنه كان يرسم لنفسه صورة زوج مخلص للغاية.

- ربما انهار لأنه كان قائماً على الصدق أكثر مما يلزم.

- أتريد أن تقول إن الزواج ينجح إذا حدث فيه تسامح إزاء شيء قليل من الخداع؟

- أنا أقول إنني لم أشأ أن أبقى متزوجاً من امرأة تحب رجلاً غيري.

- آه.

كانت صراحته مربكة للغاية. لم يكن يبدو رجلاً مجروح الكرامة. ولكن أيمكن أن يخفي هذا المظهر الصلب وراءه قلباً محطماً؟

- لكنها لا تحب الآن أحداً آخر، أليس كذلك؟

- لك تفكير الأنثى.

- وأنا أنثى.

- في هذا الثوب، ما من شك. ولكنها مسألة تمرين أليس كذلك؟

- عفواً..؟

وتمتمت، وهي تنظر في أعماق هاتين العينين الزرقاوين لو أنها لم تدع

غرورها يتغلب على حسن حكمها ويجعلها توافق على السير معه في هذا المشروع الغبيّ.

- السبب الوحيد الذي دفعك للاشتراك معي في هذا الأمر، هو أنك أردت أن تثبتي لي أن مرور الأيام قد جعلك أجمل من كل التوقعات.

واحمر وجه هولي. كيف عرف؟

- يمكنني تماماً أن أتفهم الأمر بالنسبة إلى شخص، يتصور.. أن الآخرين يتحاملون عليه.

شهقت «هولي»... مع كل دقيقة تمرّ، يزداد بغضها لهذا الرجل. وحدثت نفسها ساخطة، بأنها لا بد كانت، في مراهقتها الحمقاء عمياء بقدر ما كانت مجنونة بغرامه:

- لم أكن...

فقال غير مهتم بإنكارها:

- مهما قلت، تارا ما زالت تحب رجلاً آخر... الرجل نفسه. لكن الشعور بالذنب يتآكلها، لأنها تركتني أنا وتوم. ذلك الشعور بالذنب هو الذي يمنعها من العثور على السعادة. وأنا يهمني أمر تارا كثيراً وأريدها أن تكون سعيدة.

- هل يُفترض بي أن أصدق أنك قديس محب للغير؟

- بصراحة، لا يهمني رأيك بي مثقال ذرة. كل ما أطلبه منك هو أن تتذكري أنك نسيت عصاك السحرية في البيت الليلة.

العصا السحرية؟ يعني أنه لم يعد بإمكاني الهروب أو التصرف كما أريد؟ يا لوقاحته.

- سأكون حلوة مطيعة كما تحبني أن أكون.

قالت هذا بكل تواضع، وابتسمت ابتسامة متكلفة.

لم تسمح طوال حياتها لرجل بأن يتكلم نيابة عنها، وهي لن تبدأ بذلك الآن!.

والتفتت إلى الرجل الضخم الحجم الجالس بجانبها في التاكسي تنظر إليه

مباشرة وتجرأت على تجاهل ما يصيبها من آلام وتشنجات في معدتها.

توقف نيال عما كان يفعل، وألقى عليها نظرة جانبية غامضة.

- ليس لديك فكرة على الاطلاق عن (الطريقة التي أحبها).

لجمت وجهها بين يديها كما كانت تريد أن تفعل. يجب أن يكون هناك قانون ضد من يستخدم هذا المقدار من الحيوية.

- سأنفذ كل كلمة تقولها، يا حبيبي.

قالت ذلك بلهجة ماكرة مصطنعة وهي تنظر إليه.

فقال محذراً وهو يستوعب تهكمها أثناء سيره.

- وبحق الله، لا تسرفي في الشراب.

توترت شفتاها لمعاملته السيئة. يبدو أنه نسي أنها، لطيبة قلبها، تساعده على الخروج من ورطته.

- حسناً، السواد حول عينك يدل على أنك تتعثرين في سيرك.

- أنا، في الحقيقة، لم أقع.

- كيف حصل لك هذا إذن؟

- كنت بطيئة في تجنب...

وبدا من التعبير الذي ظهر على وجه نيال أنه كان بطيئاً هو أيضاً في الفهم.. ولكنها تابعت تقول بأسى:

- إنها لكمة.

بقي جامداً في مكانه، ولزم الصمت بعد كلامها المروع هذا. فقد آلمه أن تفضي بالأمر الواقع. وقال:

- أهو فعل رجل؟

- هذه المرة أفضل من سابقتها.

قالت هذا بمرح دون أن ترى في الضوء الخافت ما بدا في عينيه من ذعر. وسألها غير مصدق.

- ثم عدت لتتلقي المزيد...؟

أطلقت ضحكة صغيرة جافة. لم تكن تريد ذلك. لم تكن في البداية

مسرورة في عملها في قسم الطوارىء، لكنها سرعان ما وجدت فيه شيئاً من المتعة، باستثناء ما حصل في هذه الحوادث الإرهابية الطارئة.

- حسناً، ليس لديّ خيار في الواقع...

وما إن ابتدأت تخبره، حتى أعلن عن سخطه فلم تجد فرصة تشرح له فيها الأمر.

- ليس لديك خيار، يا الله يا امرأة. يحق لك أن تقطعي علاقة تعسفية. عندما كنت في السادسة عشرة، أرجعت اختيارك لصديقك إلى عدم الخبرة!.

قال هذا بازدراء. فجعلها تلميحه إلى آخر اجتماع مهين بينهما، تحمّر خجلاً.

- ولكن يبدو أن نوعاً من الانحراف جعلك تبتهجين بالضرب.

وأخيراً، أدركت هولي الحائرة كيف أنه أساء فهم كلامها. وهمّت بإخباره أنه مخطىء، فحسن أن ترى هذا المغرور المتظاهر بالصلاح مرتبكاً خجلاً... لكنها عادت فسكتت.

لكنها لا تدين له بأي تفسير. كيف يجرؤ حتى على التفكير في أنها تمتعت بتعرضها للعنف الجسدي؟ كست ملامحها بقناع من الهدوء والبرود تمحو به السخط الذي كان يخنقها.

ثم قالت له بابتسامة محايدة، محملقة فيه بعجب:

- لم تكن لدي فكرة أنك مستقيم إلى هذا الحد!.

ثم زمت شفتيها ووضعت يدها على فخذه بجرأة:

- لماذا أنت رقيق القلب بهذا الشكل؟

لوى نيال شفتيه اشمئزازاً وهو يبعد أصابعها عن ساقه وكأنها مصابة بمرض معدٍ، وقال محذراً:

- لا توتري أعصابي يا هولي.

ازداد شعورها بالدوران وهي ترى اللمعان المحذّر في عينيه. فقالت بصوت مرتجف:

- قبضتك صارمة.

وحدقت بأصابعها التي كانت تئن تحت قبضته. وشعرت بالاستهجان للأحاسيس التي انبعثت في جسدها جراء هذا الاحتكاك.

أطلق يدها بارتباك، قائلاً:

ـ آسف.

فقالت وهي تحرّك أصابعها ليجري الدم فيها:

ـ لا تهتم لذلك. في خدمتك.. وفي خدمة الجميع.

ولم تستطع هذه المرة أن تخفي الغضب الذي قرأه في نظراتها المحمومة.

ـ يبدو أنك فتاة ذكية...

ـ شكراً.

قالت هذا بجفاء. أتراه يعاملها باستعلاء؟ وتوترت شفتاه.

ـ أنا أعرف أنك تعانين من عقدة اضطهاد خاطئة، يا هولي...

ها هوذا يعود إلى الحديث عن هذا الأمر. إنه يظنني أعاني من عقدة الشعور بالنقص. وحدثت نفسها بذلك بغضب صامت بينما كان هو يتابع.

ـ ... وأنا أدرك أن من الصعب عليك أن تماثلي روينا...

وكأنني بحاجة إلى من يُفهمني أنني لا يمكن أن أماثل روينا!

ـ لكن احترامك لنفسك، سيصبح في حالة مؤسفة إذا أنت..

وصرف بأسنانه اشمئزازاً وهو يفكر في رجل ما...

ـ تريدين أن تُفهمي الآخرين أن لديك إرادة حرة، ولكن ألا يمكنك أن تري أن ما من حرية في أن تدعي أحداً يرهبك..؟

تنفست هولي بحدة وقد ارتفع صدرها منتفخاً بالغضب، ما لفت انتباه نيال فجأة. لكن هولي حثّته بمرارة.

ـ تابع كلامك.

ـ لا أظن هذا من شؤوني الخاصة.

كانت صورتها شبه عارية في غرفة النوم، ما زالت تلاحقه. ولم تكن مثل هذه الأفكار المحمومة لتقلقه، لو لم تتعلق بامرأة مثل هولي. إنها بريئة وصغيرة جداً. أضف أنها شقيقة إحدى صديقاته. وكان لديه ما يكفي من

مشاكل، فلِمَ يتورط في مشكلة جديدة؟.

لذا أبدى فجأة رغبة في تغيير الموضوع.

ـ سنصل خلال دقيقة. هل ستحسنين التصرف؟

بدا عليه الإرتياب إلى حد لم تستطع معه مقاومة الابتسام بمكر وهي تقول ساخرة:

ـ أنا التي أقرّر نوع تصرفي، وأنت الذي...

انحنى فجأة فلم يترك لها فرصة للإحتجاج، وأطبق عليها يعانقها فملأت خياشيمها رائحة العطر الخفيفة التي يضعها، مزيجة برائحة الرجولة التي تنضح من جسده. تشبثت بمقعدها مدركة في أعماقها أنها إذا ما سمحت لنفسها بالاسترخاء ولو مقدار ذرة، فهي ستنهار حتماً، أمّا هو فتراجع متمتماً:

ـ لم أكن في حالة طبيعية.

وأدركت ساخرة، أنه لم يكن يتحدث عن العناق الذي يبدو أنه لم يعره اهتماماً. إذ بقي محافظاً على رباطة جأشه، في حين حبست هي أنفاسها.

ـ حياتك خاصة بك...

ـ وكذلك مشاعري....

تجاهل مقاطعتها الساخرة له بينما كان يطلق على نفسه، بصمت، كل أنواع النعوت بالحماقة والغباء لاندفاعه الصبياني الغبي... بينما تابع.

ـ ... ويمكنك أن تفسريها كما تشائين.

ورفع يديه متقبلاً ما يستحق من اللوم بينما كانت السيارة تقف أمام الفندق.

لولا ذلك العناق، كنت سأفتح فمي... لم أكن..! كان..! ودار في رأسها صراع بين الاعتراف والإنكار فشعرت بالدوار. ولم يتبدد ذلك الإحساس المؤلم من أعماقها ما دام يملأ خياشيمها برائحة رجولته المميزة هذه.

ـ ستكون فكرة صائبة لو أنك خففت من الخلافات بيننا.

كانت الفكرة ستكون أفضل لو أنها ألقت بنفسها من السيارة.

ودون أن تنتظر منه أن يؤدي دور الشهم، ويفتح لها الباب، نزلت من التاكسي. كانت تأمل في أن تبدو تلك المرأة الهادئة المحنكة. فلا تنهار عندما يعانقها رجل وسيم.

وقال يجيبها:

ـ هذا إذا أردته أنت أن يكون كذلك. وفي الواقع، كان هذا التماساً مني. حاولي فقط أن تتذكري أننا غارقان في حب بعضنا البعض.

أضاف هذا متهكماً وهو يدفع للسائق أجره ثم يعود إلى جانبها. كان الدخول إلى مطعم فخم مع نيال ويسلي أحد أجمل أحلامها، لكن تحققه بدا لها مخيّباً للظن.

فقد وقف جانباً، وهو يبتسم ابتسامة عريضة ساخرة نوعاً ما، لتدخل الردهة الفخمة أمامه. آه، نعم... إنه يتصرف جيداً الآن، بعد أن مزّق شخصيتها إلى أشلاء وألقى عليها محاضرات، وفوق هذا كله، عانقها بطريقة جعلتها تتمنى المزيد. لشدّ ما كرهت نيال ويسلي!

ـ لقد تأخرت.

وصلت غمامة العطر الثمين إلى هولي، لكن الذراعين الجميلتين لم تصلا إليها... بل إلى نيال.

أخذت هولي تنظر إلى تارا وهي تحيط عنق زوجها السابق بذراعيها، ثم تعانقه بحرارة.

حوّلت هولي عينيها عنهما. لم تشأ أن ترى ما إذا كان هذا العناق سيبقى طاهراً كالعناق الذي تلقته هي. الأمر الذي فاجأها هو أن «تارا ستيل» كانت شخصياً، أجمل ممّا هي عليه على أغلفة مجلات الأزياء اللامعة.

ـ وجهك ملطخ بأحمر الشفاه، يا حبيبي.

قالت تارا هذا بصوت أبح وهي تمسح وجه نيال بمنديل ورقي. وتقبّل هو منها هذه الخدمة وهو ينظر إليها بحرارة من تحت جفنيه الثقيلين الكسولين.

ـ وهذا ليس مني.

وهذه المرة كانت هناك نبرة خيبة أمل مازحة مزيجة بتعنيف رقيق.

ـ مرحباً.

ونظرت إلى هولي باهتمام، ثم باستفهام إلى نيال.

ـ لقد كان كتوماً للغاية حتى إنه لم يخبرني باسمك. في الواقع، كنت ابتدأت أظن أنك من بنات مخيّلته الخصبة. لم أعرف رجلاً قط واسع الخيال مثل نيال.

ورمقته بنظرة حميمة ذات معنى جعلت هولي تشعر بتقزز بالغ، فسألتها مندفعة:

ـ وهل عرفت رجالاً كثيرين؟

انطلقت هذه الكلمات قبل أن تستطيع هولي منعها. ففكرت أنه ربما من الأفضل لها أن تدع نيال يقوم بالحديث.

ضحكت تارا، فدهشت هولي، إذ ما كانت لتلومها لو أنها ثارت غضباً أو قذفتها بشيء.

ـ ليس نصف ما تريدك الصحف الشعبية أن تصدقيه...

ـ هولي.

خف نيال إلى إنقاذ الموقف مستجيباً إلى نظرة تارا المتسائلة. انحنى إلى الأمام ليجذب كرسياً لهولي وهو يهمس في أذنها:

ـ لا تهتمي، الغيرة جيدة.

شعرت هولي بالدم يبتلع لونها الشاحب بطبيعته.

ـ لم أكن أقصد أن أكون... قليلة الأدب.

ـ هذه ليست سوى البداية.

أدلى نيال بهذه الملاحظة بصوت جاف ثم جلس بين المرأتين.

ـ لا تمزح، يا نيال. هولي أنت فقط تذكرينني بأنني امرأة الأمس، وفي ظل هذه الظروف، هذا عدل تماماً.

ردت هولي على الابتسامة المشرقة والاعتراف الصريح بابتسامة واهنة

منها، فتابعت المرأة قائلة:

- يجب ألاّ تتضايقي مني، يا هولي، دوماً ستبقى في نفسي لمسة حنان نحو هذا الرجل.

لمسة حنان على أقل تقدير.. أخذت هولي تفكر في ذلك مجفلة لهذا التعاطف الحقيقي البادي بين ذينك الزوجين المتباعدين، وخيل إليها أنها رأت دموعاً تكاد تنهمر على أطراف أهدابها الفاتنة الطويلة. لا بدّ أنه وهم.

وراحت هولي تفكر لماذا لا يريد نيال أن تعود إليه تارا؟ لم تكن تارا جميلة وجذابة فحسب، وإنما عذبة الروح والشخصية أيضاً!.

- لو علمت بوجودك قبل الآن، لما حاولت قط خداع نفسي بمحاولة اضرام نار الحب من جديد. ولكن إيّاك أن تغاري، فقد أخبرني نيال أنه شديد الإخلاص لك.

إزاء ابتسامة نيال البالغة الحب لها، أصدرت هولي آهة معذبة من حلقها. ولحسن الحظ، فسرت تارا هذا الاحتجاج غير المترابط بمهمهة العشّاق، فابتسمت للعاشقين بلطف، في حين شعرت هولي بالضيق يتملكها.

الأمر أنها لم تكن مستعدة لمثل هذا الخداع المطوّل. أرادت أن تهبّ واقفة وتصرخ: إنه لا يحبني، حتى أنه لم يتذكر اسمي!.

- والآن، بعد أن رأيتك، عرفت السبب. لقد أخبرني بأنك تحبين الأطفال... فلن يستطع نيال الزواج من امرأة لا تحبهم. لقد غدا توم محور حياته بالفعل، ويسرني للغاية أنه وجد من تشاركه هذه الرغبة. إنه أب رائع، بقدر ما أنا أم فظيعة.

- أنت تعلمين أن هذا كلام فارغ.

استنكر نيال كلامها على الفور، مقطباً جبينه.

- توم بالغ الزهوّ بأمه وسيبقى كذلك على الدوام. وأي شخص يقول غير هذا الكلام، أرسليه إليّ.

لم يحدث أن التقت هولي قط برجل مستعد ليحارب العالم من أجلها،

وشعرت بأن الأمر محبط للغاية. ولأمر لم تفهمه، وجدت نفسها على وشك البكاء، ازاء هذه العواطف المتبادلة.

أين ذهب النقد اللاذع.؟ والتوتر..؟ لم تكن هذه اللقاءات طبيعية على الإطلاق. كيف يمكن لزوجين أن يبقيا صديقين بعد افتراقهما؟ من المؤكد أن الشعور بالخيانة والغضب لا يمكن أن يختفي بين ليلة وضحاها. إنها متأكدة من أنها ما كانت ستبدو بهذا التحضر لو وجدت نفسها في وضع كهذا. ولكن يبدو أنهما يتفقان في كل شيء...

فلماذا؟ لماذا افترقا إذن؟

اغرورقت عينا تارا بالدموع وعضت شفتها المرتجفة.

- كنت بالغ الشهامة معي رغم كل ما فعلته أنا. أنا سعيدة جداً لأنك عثرت على فتاة مناسبة لك. من المؤكد أن للأرواح علاقة بذلك.

قالت تارا هذا هامسة بصوتها الرخيم.

- الأرواح؟

سألها نيال بحذر، بينما حدقت هولي إليها وهي تعلم أنها لو تفوهت بمثل هذا، لمزّقها إرباً إرباً. وأخذت تتفرس غير مصدقة في ملامحه المتسامحة هذه.

- أخبرتني العرّافة منذ أيام بأن شيئاً سيحدث لأحد أعز أصدقائي. ولم أعرف حينذاك أنها كانت تتحدث عنكما.

- العرافة؟

أخذت هولي تفكر في قرارة نفسها في أن هذه المرأة عذبة الروح والشخصية حقاً، لكنها معتوهة.

- نعم. إنها بصيرة إلى حد لا يصدّق. وأنا لا أقدم على أي شيء هام دون استشارتها، أليس كذلك يا نيال؟

فقال بجفاء:

- هذا صحيح.

- إنها لا تقبل زبائنها دون توصية ولكن بإمكاني أن أقدمك إليها إذا

شئت، يا هولي. لقد ساعدتني كثيراً عندما انفصلنا، وإن كنت لا أقول إنكما سوف...

- لا شكراً. أفضل أن أتحكم بمصيري بنفسي.

- آه، أراك متشككة مثل نيال.

وابتسمت لزوجها السابق متسامحة.

- أخبريني يا هولي. ما هو رأيك في ابني توم؟ أليس هو أعظم صبي في العالم؟

- أنا... أنا لم أره بعد.

قالت هولي ذلك آملة ألا تكون قد ناقضت أي شيء قاله نيال.

- أحقاً؟

لم تدهش هولي لحيرة تارا. بدا لها أن نيال لو تزوج ثانية، فستبقى مطلقته الرائعة ملتصقة به كابنه، وستكون لها الكلمة الأخيرة: كما أن ابنه إذا أبدى علامة الرفض، عندئذٍ سيقول وداعاً للحبيبة. وشعرت هولي بالشفقة على المرأة التي ستجد نفسها في هذا الوضع. وقال نيال بنعومة:

- وكيف تستطيع رؤيته؟ أنت تعلمين أن الصبي يقيم في «مين» مع «كريس» و «جود» منذ شهر. أنت التي أقنعتني بأن أدعه يذهب، هل نسيت؟

- حسناً، إنه يلعب مع «دانيال» الصغير، وفكرت في...

وسكتت... وبدا على وجهها تعبير غير عادي.

- أتعني أنكما لم تتعرفا على بعضكما البعض إلا منذ أسابيع؟ كنت أظن... هل يعرف أبواك بالأمر، يا نيال؟

- لا أحد سواك يعرف ذلك، يا تارا. ونحن نريد أن يبقى الأمر كذلك.

ألقت هولي عليه نظرة إنذار. هذا أفضل، لأن المسألة ستكون مربكة إذا خرج الأمر إلى العلن.

- رغم أنني أعرف هولي منذ كانت في ملابس المدرسة، إلا أن كل هذا

جديد علينا...

وأمسك بيد هولي ليرفع أناملها إلى فمه.

بدا في عينيه الزرقاوين اللتين استقرتا على وجهها، لمعان تحذير، وهو يقول لتارا بصراحة:

- لم نعتد بعد على هذه الفكرة، فلا تبدأي بسرد القصص المفزعة عن أبويّ. ذلك أن هولي مرتعدة منذ الآن لفكرة مقابلتهما، أليس كذلك يا حبيبتي؟

وحدق في عينيها بحب. هذا الرجل تمثل تمتازا! وعاد يمسك بيدها التي كانت تستلقي مصانة على حجرها، ثم أخذ يداعب راحتها بشفتيه.

فأرسلت هذه الملامسات الرقيقة تياراً كهربائياً في جسدها.

- لا.

ناقضت كلامه بحزم. قد تكون تمثل دوراً، لكن ثمة حدود. إذا كان يتوقع منها أن ترمش بأهدابها وتوافق على كل ما يقوله، عليه أن يعاود التفكير! نعم، إنها تخاف! أليس هو خوف من نوع آخر هذا الذي يجعل قلبها يخفق؟ وأزاحت من ذهنها هذا التفكير المزعج، وهي تحاول، بشكل غير واضح، أن تستعيد يدها التي استولى عليها نيال.

وقبل أن تطلب هولي من النادل ما تريده من شراب، سبقها نيال إلى الكلام، وكان هذا أكثر ما تكره في الرجال.

- هولي تريد مياه معدنية، أليس كذلك يا حبيبتي؟

وحذرتها ابتسامته الخبيثة من أن تناقضه.

امتلأت عيناها بالاحتقار، لكنها بادلته ابتسامته بما يناسب المقام من شغف:

- كما تقول، يا حبيبي.

ويبدو أن تارا التي كانت تراقب هذا المشهد العاطفي، لم تنتبه إلى لهجة التهكم في الحديث.

تنحنحت هولي ثم حولت انتباهها إلى تارا. لتقول لها شارحة:

- إنه يظن أن لدي مشكلة بالنسبة إلى الكحول.

وتنهدت بعنف.

لم تعرف تارا ما إذا عليها أن تأخذ كلام هولي مأخذ الجد أم لا. نظرت حائرة إلى وجه نيال المتجمد، ثم عادت تنظر إلى هولي.

- أنت تمزحين، أليس كذلك؟

- نعم، يا تارا. إنها تمزح! إن لدى هولي قدرة بالغة على المزاح.

سمعت هولي التنبيه المستتر في صوته فخنقت ضحكة في صدرها:

- كنت أظن، يا حبيبي...

ورفعت إليه عينين صريحتين.

- أنك أحببت كل شيء في شخصي.

وفي هذه اللحظة، جاء النادل ليأخذ الطلبية، فقالت لنيال.

- أطلب لأجلي يا حبيبي.

وبدا في صوتها ونظراتها كل ما في امرأة صغيرة من عجز وضعف، وهي تتلقى نظرة مؤلمة.

- فأنا عاجزة عن مثل هذه الأمور.

- لا تتشاجرا. أنا أرى أنكما تستمتعان بذلك، لكنني أكرهه.

قالت تارا هذا ضارعة. فنظرت إليها هولي بذهول. هما يستمتعان بذلك؟ من أين أتتها هذه الفكرة الحمقاء؟ وألقت نظرة جانبية على نيال لتجده ينظر إليها بشكل يدل على أنه منذهل مثلها لهذه الفكرة غير المعقولة.

- أخبريني يا هولي، ما هو عملك؟

سبقها نيال مجيباً:

- عملها هو أن تسبب لي الشرود.

أخذت تفكر في أنه استنتج على ما يبدو أن عملها لا يليق بزوجة رجل مثله ذي سلطة ونفوذ.

- هل ذكرت لك أن هولي هي أخت روينا باريش؟

- أحقاً؟ ما كان بإمكاني أن أتكهن بهذا، يا نيال.

وفكرت تارا لحظة.

- كنت أظن أنك إذا عدت فتزوجت فستكون هي روينا. في الحقيقة، يا هولي، في بداية زواجنا كنت أغار من أختك ومن تصرفاتها البريئة مع زوجي... تعرفين ما أعني.

وعندما أومأت هولي متفهمة، ضحكت تارا:

- إنه أمر يدعو إلى السخرية، أليس كذلك؟

- أنت لم تخبريني بهذا قط.

هتف نيال بذلك مصعوقاً، وقد أظلم وجهه.

أهو شعور بالذنب؟ أخذت هولي تتساءل بقسوة. حسناً، لم تجد سبباً يدعوها إلى تبرئة نيال لعدم وجود الأدلة الكافية. وأجابت تارا:

- حسناً، ما كان لي أن أفعل هذا، أليس كذلك، أوه، يا للحماقة.

وفجأة علا ضجيج في المكان فتلفت الجميع إلى مصدر الضوضاء.

- آه، النجدة. أرجوكم. النجدة.

فرأوا امرأة جميلة على ركبتيها قرب رجل متوسط العمر مستلقٍ على وجهه، وكانت تصرخ باكية:

- لا أراه يتنفس.

أسرعت هولي خلف نيال وهو يتقدم نحو المرأة المصدومة. وكان يتحسس نبض الرجل عندما انحنت قربه.

- لا شيء.

قال ذلك هازاً رأسه. وأخذ يفك ربطة عنقه، بينما كانت رفيقته تنتحب بمرارة وهي تلقي بنفسها عليه. وقالت هولي:

- دعني...

فقاطعها نيال باقتضاب.

- هلاّ اهتممت بالمرأة؟ هل استدعى أحد سيارة اسعاف؟

- لقد فعلت ذلك، يا سيدي.

هذا ما قاله رئيس الندل الذي ظهر بجانبه، قبل أن يأخذ المرأة المذهولة ويدفعها جانباً. ونظر متشككاً إلى نيال وهو يضغط على صدر الرجل بحدة، ويميل برأسه إلى الخلف ليقوم بعملية التنفس الاصطناعي. وقال له:

ـ ألا تظن يا سيدي أن علينا انتظار وصول الطبيب؟

***

٣ ـ دور العاشق الولهان

ـ أنا طبيبة.

قالت هولي هذا للنادل وهي تلقي عليه نظرة سريعة قبل أن تبدأ عملية الضغط على الصدر.

ـ واحد... اثنان...

وأخذت تعد بصوت مرتفع.

تقابلت عيناها بعيني نيال بنظرة سريعة، فقال مفسحاً لها المجال.

ـ إنها لعبة لإظهار المهارات، أيتها الساحرة.

ـ أرح نفسك، إنه بحاجة إلى ذلك.

عندما بدأ الرجل يتنفس، أحست هي بالارتياح الشديد وسرها أن طبيب الاسعاف الذي وصل للتو كان وجهاً مألوفاً. فشرحت له شرحاً مقتضباً ما حدث. فنظر هذا إلى المريض، ثم تحول إليها ليقول مداعباً.

ـ أنت لا يمكنك الابتعاد عني، أليس كذلك يا دكتورة باريش؟

ثم أشار إلى الشخص الممدد على الحمالة.

ـ انجاز جيد، سنتولى الأمر الآن.

ـ شكراً يا بول.

ـ لا، الشكر لك يا حلوتي.

وابتسم لها من أعلى كتفه بحرارة فيما كان الرجل ينقل إلى سيارة الاسعاف.

www.elromancia.com

ـ نفتقدك يا هولي.

كان نيال يراقب هذا المشهد بعينين ضيقتين وتساءل عما إذا كان يبدو أحمق بالفعل. ربما لا. ولكن هذا تماماً ما كان يشعر به!

ـ لماذا لم تخبريني؟

التفتت هولي إلى الرجل الطويل المتجهم، وأجابت:

ـ ولماذا لم تسأل؟

أخذ أشخاص عديدون يزفون إليها التهاني فيما كانت تشق طريقها نحو المائدة. وضعت تارا كأس الشراب الكبير وهي ترتجف، فوقفت وعانقتها بحرارة:

ـ كنت رائعة. أليس كذلك يا نيال؟ لا أدري كيف بقيت هادئة بهذا الشكل. إنني أرتجف كالورقة.

ثم تركتها ومدّت يدها تعلن بثقة:

ـ حسناً، أنا أعرف الآن ما هو عملك.

وشعرت هولي بالحسد، وهي ترى أظافر تارا المصبوغة الطويلة الرائعة، في حين تُبقي هي أظافرها قصيرة دوماً.

ـ وأنا أيضاً أرتجف... في داخلي على الأقل.

ـ لا شك أن شعورك بالقدرة على مساعدة الآخرين هو شيء رائع.

فقال نيال:

ـ إنها محظوظة لأنها لا تعيش في بلاد صارمة القانون، وإلا كان عليها أن تفكر مرتين قبل أن تساعد أحداً.

أومأت هولي بشيء من الخجل إزاء عواطف تارا الجياشة. وأقرّت في أعماقها، أنها محظوظة لمزاولة عمل تحبه من كل قلبها.

ـ إن عملي متعب للغاية. وساعات العمل لا تتلاءم بالضبط مع الحياة الاجتماعية.

ـ يمكنني أن أتصور هذا.

أجابتها تارا بذلك وهي التي تعرف جيداً ساعات العمل الطويلة

المرهقة.

وغمزت هولي وهي تبتسم بمكر:

ـ لكن هنالك ميزات مفيدة، هل لاحظت..؟

فأجابت تارا على الفور:

ـ كان من غير الممكن أن يغفل رؤيته أحد. هنالك جاذبية خاصة في الرجل ذي البدلة...

وغمزت بعينها. فوافقتها هولي بمشاعر صريحة...

ـ ليس هذا فقط...

ـ هل أخرج؟

قال نيال هذا. وبالرغم من لهجته الفاترة، أدركت هولي أنه لم يكن شارداً أثناء حديثهما. وقالت تارا تغيظه مداعبة.

ـ لا تخبرني أن أحاديث الفتيات تجعلك تشعر بعدم الأمان، يا نيال.

ـ لا أريد أن أمنعكما عن تبادل حديثكما المفضل.

فقالت هولي بابتسامة عذبة ماكرة.

ـ لا اطلاقاً.

ـ في الحقيقة، يا هولي، أنا أعلم أنه من الصعب الجمع بين المهنة والزواج. ولكن إذا كان الشريك متعاوناً، فكل شيء ممكن.

قالت تارا هذا وهي تجلس بجانب زوجها السابق، وبدت غير منتبهة تماماً إلى لهجتها المتهكمة.

ـ ليس هناك الكثير من الأزواج المتعاونين.

أجابت هولي بذلك ساخرة. فلطالما رأت زيجات تصل إلى حد الإنهيار نتيجة التوتر واستنزاف القوى.

ـ حسناً، لست مضطرة إلى المراقبة بعد الآن، أليس كذلك؟ لأنك وجدت رفيقاً.

ونظرت تارا إلى نيال وابتسمت بحرارة.

ـ أتعلمين؟ إنني مسرورة جداً لأنه سيتزوجك أنت وليس أختك روينا؟

وأضافت بلهفة عندما نظرت هولي إليها بغيظ.

ـ لأنكما، أنت ونيال، تبدوان متلائمين. وقد رأينا كيف كنتما متعاونين معاً الآن.

لم يكن من وقت للتساؤل أثناء الذعر الذي ساد، ولكنها تستطيع الآن أن تتذكر ما حدث من فوضى وارتباك. كان غريباً بالفعل، أن يسارع نيال إلى انجاز ما تريده، دون أن تسأله ذلك.

لقد عملا معاً بانسجام لانقاذ حياة الرجل.. فإذا كان يسارع إلى تلبية متطلبات المرأة بهذا الشكل، وفي ظروف أكثر امتاعاً فإنه لأمر مذهل دون ريب!.

مضت لحظات حالمة سمحت فيها لنفسها بالتأمل في تصورات لذيذة فاضت بها مخيّلتها.

ـ نحن بالتأكيد، توأما روح منذ البداية.

التهكم الجارح في صوته جعل تارا تنظر إليه باستنكار بالغ فاستيقظت هولي من أحلامها. وحملقت بذعر فخرجت من بين شفتيها آهة ممزقة. قال نيال وهو يلاحظ تأوهها:

ـ أنت متعبة.

لحسن الحظ، لم يدرك السبب. وبدا عليه الاهتمام، وامتزج بقليل من الضيق وربما شعر أنها قد أجهدت نفسها لايذائه.

لكن العاشق الحنون هو جزء من الدور الذي يمثله.

كل ذلك الحديث عن الأزواج المتعاونين المتفهمين جعلها تشعر بالرقة وحرارة العاطفة، فضلاً عن شيء من الكآبة. عليها أن تسيطر على مخيّلتها. إنها امرأة راشدة ولا يجب أن تفقد السيطرة على مشاعرها.

كانت تعلم أن هناك نساءً كثيرات في حياة نيال ويسلي وحتى لو أظهر اهتماماً بها، فإنها لا تنوي أن تلتحق بصف عشيقاته. ويبدو أن هناك امرأتين مهمتين للغاية في حياته، زوجته السابقة الرائعة الجمال، وأختها روينا. والمرأة العاقلة تعرف متى تتجنب المنافسة. لا... علاقتها بنيال ستبقى في

حدود التظاهر.

ارتاحت هولي عندما قرر نيال مغادرة المطعم مبكراً. وفي طريق العودة إلى البيت، لم يُظهر رغبة في الكلام. وعندما تكلم ارتاعت لسماع صوته.

ـ لا أظن أنّ من آذى عينك هو حبيب... نظراً لطبيعة عملك..

وكان في صوته نوع من الثقة المستسلمة.

أومأت هولي متظاهرة بالاهتمام البالغ بحركة السير.

ـ كان جريح الرأس صعب المراس. وفي الواقع، كان بول، الطبيب المتمرس الذي رأيته قبل قليل، هو الذي خلّصني منه.

ـ ذلك الشاب المتعدد المواهب؟

قال هذا ملمحاً إلى قوته البدنية.

ـ إنه غاية في الشهامة.

كان يكفيها استهزاء «نيال» بها، حتى يحاول أن يهزأ أيضاً بأصدقائها.

ـ أليس لديهم في تلك الأمكنة فريق أمن؟

قال نيال هذا مستنكراً، فأجابت:

ـ بلى طبعاً.

ـ لكن ذلك لا يبدو كافياً تماماً.

فرفعت كتفيها معترفة:

ـ ليس دوماً.

ـ لماذا تركتني أثرثر وأثرثر دون أن تشرحي لي الأمر؟

ـ لأنك بدوت وكأنك تحب أن تسمع صوتك...

وصمتت، تاركة المجال لابتسامة صغيرة. ثم قالت:

ـ في الواقع، كدت أجنّ لأنك ظننتني امرأة بذيئة فاسدة. رأيتك تعاملني باستعلاء وتتظاهر بالتقوى والصلاح.

ـ لا تسكتي.. وأخبريني بالضبط عن شعورك.

وجد نيال، في ابتسامتها الجانبية الصغيرة سحراً غير عادي.

ـ يمكنني أن أتفهّم وجهة نظرك.

- يمكنك ذلك؟

قالت هذا برعب، وهي تنظر إليه لأول مرة منذ ابتداء الحديث.

- يبدو أنك انسجمت جداً مع تارا.

- لقد أحببتها فعلاً.

وابتسمت بتوتر وهي تتابع.

- لم أشأ أن أخدعها.

- لا تهتمي. فلذلك سبب وجيه. من الصعب على تارا أن تتوقف عن نزعة التضحية بالنفس التي تمتلكها.

- كيف ستشرح لها الأمر عندما تعرف أنك لن تتزوج؟

- لا تقلقي، فمخيّلتي لم تخذلني بعد.

- هذا ما قالته تارا عنك.

وقهقهت ساخرة.

رفع نيال حاجبيه فاحمر وجه هولي خجلاً. كانت تخشى أن يظن أنها فكرت أكثر مما ينبغي في هذا الأمر.

- أفهم أن تأخرك ذاك في النوم ليس نتيجة انغماس في الملذات؟

- لقد أخطأت في الذهاب إلى حفلة وداع، بعد عطلة أسبوع مرهقة. آه، يا إلهي!.

صرخت فجأة وهي ترفع يدها إلى جبينها.

- ماذا حدث؟

- لم أتصل بأمي.

ثم أضافت كيلا يستغرب أن امرأة في سنّها لا تزال تتصل بوالديها في أوقات محددة منتظمة:

- ستتصورني الآن في ورطة رهيبة.

ويعود اهتمام أمّها الشديد بها، إلى أنها كانت عرضة للحوادث في طفولتها. وحين حاولت أن تخبر أمها أنها لم تعد تتسلق الأشجار، أخبرتها هذه أن ما يحدث للبنت الكبيرة هو أسوأ من السقوط عن الأشجار! لكن

أسرتها لم ترَ أبداً أنها كبرت.

لمعت عيناها السوداوان فجأة بسخرية ماكرة:

- يمكنني دوماً أن أستعمل العصا السحرية عندما يزداد العمل في القسم.

وجد نيال في ملامح وجهها ما يشدّه إليه. ولم يستطع أن يتذكر آخر مرة استحوذت فيها امرأة على اهتمامه بهذا الشكل.

- أنا لم أقل إنني ضد الساحرات... خصوصاً إذا كان شعرهنّ أحمر وجسدهنّ جميل وبشرتهنّ بيضاء.

ومال برأسه، وعيناه اللامعتان تتنقلان على الميزات التي وصفها.

أصغت هولي إليه غير مصدقة. يا إلهي، أتراه يحاول اغوائي؟ نيال ويسلي يحاول اغوائي؟ وأدركت بألم واضح أن أحلامها لا يمكن أن تتحول إلى حقيقة أبداً فهذه الكلمات اعتاد نيال أن يدلي بها لأي امرأة تعترض طريقه.

- لقد قام مقوّم الأسنان بعمل باهر أيضاً بالنسبة لأسناني. هل تريد أن تلقي نظرة؟

قالت ذلك بحدة، غاضبة منه لسطحيته الواضحة هذه. وذكرته بفظاظة:

- الغزل لم يكن من ضمن المسرحية.

لو كان لديه ذرة من الاحساس، لتمكنا من تجنب مشهد محرج. قال:

- أنا أرتجل الآن.

شعر بأنها مختلفة تماماً عن النوع الذي دأب دائماً على التعرف عليه، فهي غريبة الأطوار، موبوءة بالشعور بعدم الأمان ولسانها سليط للغاية. لم يغب عن بالها، أنه لم ينكر مغازلته لها. فهذه الأشياء لم تتخيلها هي. ولم يبق لديها مجال للشك إزاء مشاعره المحمومة الواضحة في عينيه.

- ابدأ إذن!.

طلبت منه ذلك بعنف.

ـ يبدو أنك شعرت بالإهانة.

لم يكن يعتبر نفسه رجلاً تافهاً، لكن تجاوبها لم يكن يحتوي على أي اطراء. كانت هي أيضاً منجذبة إليه بكل تأكيد. وهو بارع في ملاحظة هذه الأمور.

ـ هل هنالك رجل آخر؟

فهزت رأسها نفياً.

ـ إذا كنت تخاف أن أشعر بالإهانة، فلا تفعل لأنني لن أشعر بذلك. ولا أظن أن سمعتك كزير نساء ستتأثر كثيراً إذا أخذت عطلة ليلة واحدة.

وخلعت الخاتم ثم قذفته به دون أن تواجه عينيه.

فارق الهزل ملامح نيال. ولم يستطع أن يتذكر آخر مرة شعر فيها بمثل هذا الإحباط بسبب امرأة. ما الذي في هذه الساحرة الحمراء الشعر حتى تهينه بهذا الشكل؟ وأخذ يفكر بكآبة. هل تعتقد حقاً أنه ذلك الرجل العابث الماجن كما وصفته الصحف، وهل تظنه مسروراً بهذه السمعة؟

وقال وهو يتلقى الخاتم مع إيماءة من رأسه.

ـ أنا، في الواقع، لا أغازل كل من يشاركني سيارة. أنا أغازل من يصعد معي في السيارة، إنما النساء فقط.

وكان تهكمه كئيباً.

انتبهت هولي إلى أنها أغضبته فحاولت أن تصحح الوضع، قائلة له بلطف:

ـ أنت تعلم ما أعني. أنا لا أقول أن في موقفك من النساء أي خطأ.

ـ هذا انفتاح عقلي بالغ منك.

أتراها جرحت كرامته كرجل؟ إنه ينظر إليها بشيء من الغرابة. فقالت:

ـ ربما أنا لست عفوية للغاية. وربما استغرق وقتاً في اختيار نوع فطوري، أطول من الوقت الذي تستغرقه في اختيار رفيقاتك.

ـ أنا ما زلت أتذكر عندما طلبت مني أن أضمّك. وكان ذلك انفتاحاً

عقلياً جيداً منك.

قال هذا معنفاً وهو يحل، بفروغ صبر، ربطة عنقه الضيقة.

عاتبته قائلة:

ـ محاولة رخيصة. ولا أدري ما الذي تستفيده من إثارة هذا الأمر.

وتابعت بضيق لإثارة تلك الذكريات.

ـ كنت مراهقة أرى العالم بنظارات وردية. كنت صبية صغيرة بينما أنت لم تكن كذلك، وكنت خشناً معي دون أي مبرّر. وفي الواقع، كنت شريراً نوعاً ما.

ما حدث هو أن البيت كان غارقاً في الظلام، عندما عادت برفقة أحدهم ودعته إلى فنجان قهوة. ودام التعقل إلى أن وصلا إلى غرفة الجلوس حيث انقضّ عليها. ودار بينهما صراع عنيف تملك بسببه هولي الذعر البالغ.

توقف الصراع فجأة عندما اشتعل الضوء وبرز نيال بقدرة قادر، بعيون نصف مغمضة.

كان عاري الصدر، منفعلاً، بسبب نومه على الأريكة. وعندما انتصب واقفاً، ألقى الفتى نظرة واحدة على نيال بقامته القوية وعضلاته المفتولة، ثم هرب دون أن ينطق بكلمة.

وما إن ذهب الفتى، حتى انشغلت هولي بنيال. إذ لم تكن تعلم أن الرجال قد يكونون رائعي الجمال إلى هذا الحد. بدا لها غاية في الإهتمام وهو يسألها إن كانت بخير. أومأت هولي برأسها وهي تحاول أن تسوّي ملابسها المشعثة، ثم أخذ نيال يحدثها بأشياء كثيرة سبق لأبيها أن تفوه بها. كانت محاضرة أبيها أمراً، ولوم وتعنيف فتى أحلام حداثتها أمراً مختلفاً تماماً. لقد أحرقها الإذلال حينذاك. فقد كان يتحدث إليها وكأنها طفلة. ثم قال نيال وهو يصل إلى استنتاج مرح وقتها:

ـ لا يبدو أن ذلك الغلام يحسن العناق، والأفضل أن تنتظري حتى تعثري على شخص يمكنه...

عند ذلك لم تعد تحتمل كل ذلك الإذلال. وضعت يديها على وركيها

الضيقتين، ودفعت صدرها وذقنها إلى الأمام بشكل عدواني وهي تهتف دون وعي.

- إذا كنت ماهراً، لماذا لا تعلمني ذلك إذن؟

نظر إليها نيال بطريقة جعلتها تشعر بأنها خرقاء. صفعها مرة بعد أخرى، مدمراً إياها، بألفاظ استهجان صريحة.

تنحنح نيال. أدهشها أن يبدو لها متضايقاً خجلاً. لولا علمها بأنه لا يعاني من عدم الثقة بالنفس لظنت أنه قد ندم على الطريقة التي عالج فيها الأمور. وهي طريقة لا بد أن أكثر الشبان سيجدونها مرعبة.

- أحياناً تصبح القسوة نوعاً من النبل وأنا أسمي تلك الضربة التي حصلت عليها، نوعاً من الإرهاب.

- كانت ضربة موفقة.

قالت هذا وهي تتذكر مدى خوفها عندما تعرضت، وللمرة الأولى والوحيدة في حياتها، إلى عنف جسدي وقد هبط الرجل الكبير القوي على ركبتيه لاهثاً معذباً.

- ولم تكن القسوة فقط في أنك دعوتني بالفتاة الصغيرة الغبية السيئة السلوك، بل أيضاً في أن الأمر غير صحيح. وأنا آمل، لأجل ابنك، أن تكون نظرياتك، قد أنضجتها السنوات.

توتر فك نيال إزاء هذا الانتقاد الجارح لمهارته كأب.

فقال بازدراء بالغ:

- أفهم من هذا أنك كنت تضمرين لي الحقد طوال هذه السنوات. وقد أسعدك جداً أن تسنح لك فرصة تردين لي فيها الضربة، أم أن الرفض كان يهدف إلى إثارة اهتمامي؟

- بل هناك تفسير أكثر بساطة واحتمالاً، وسأقوله، وهو أنك لا تعجبني يا نيال.

رفع حاجبه متشككاً وهو يكبح رغبة غير متحضرة لكي يجعلها تغيّر كلماتها.

- فمك يقول شيئاً، وهاتان العينان الكبيرتان الجائعتان تقولان شيئاً آخر مختلفاً.

يا للمغرور... لكن المشكلة هي أن كلامه صحيح. وسرت وخزات خوف في ظهرها المتصلب. مهما بلغ إنكارها لذلك، فقد كانت تعلم أن نيال يروق لها كثيراً. دعت الله أن يجعل نيال يرى يرى في عينيها حالياً التهكم والإزدراء ليس إلاّ.

- إذا كان هذا الظن يسعدك ويرضي غرورك، فأنا أرضى بذلك.

ضحك نيال، وكان في ضحكته ثقة وغطرسة. وتوهج وجه هولي وصرفت بأسنانها، وقررت أن تحافظ على الصمت بقية الرحلة.

لم يدخل معها إلى المبنى، ولم تهتم هي بذلك، ولكن بعد أن أدت إليه تلك الخدمة في انقاذه من تلك المرأة، كان عليه أن يشكرها على الأقل. لكنها أخذت تتساءل لماذا يدهشها ذلك. إنه مجرد شاب ثري عابث مدلّل، وهنيئاً له بتارا وروينا!

***

٤ ـ الصغيرة المحبوبة

ـ عندما تأتي لاصطحاب توم، ستمضي عطلة نهاية الأسبوع هنا.

لم يكن في الصوت الذي يكلمه في طرف الخط الآخر شيء من التردد.

تنهد نيال، ورفع يده، فأسرعت مساعدته بالخروج دون أن تنتظر رداً، وأغلقت الباب بهدوء خلفها.

ـ أظن أن بامكاني ذلك.

أكد الأمر رغماً عنه، ثم أخذ يستعيد جدول مواعيده في ذهنه بسرعة، شاعراً بالألم والتأثر. كان معتاداً على تدخّل أمه، لكنه يكره أن يرتب له أحد أموره. وهي تعرف هذا قطعاً.

لقد شعر باللهفة إلى ابنه، وعندما راجع الأمر بتجرد، رأى أنه كان أنانياً حقاً، لأن الأبوين لا يريان ابنهما، بالقدر الذي يريدانه.

ـ وأحضرها معك.

فتوقف نيال عن العبث بقلمه وسألها.

ـ من هي التي...

فجاءه الجواب برقة:

ـ خطيبتك.

سقط القلم من يده على الأرض. لم يخطر له أن تارا قد تخبر أمه... وكان عليه أن يفهم ذلك! وأخذ يشتم نفسه لعدم ملاحظته هذا العيب الهائل في تخطيطه:

ـ ما الذي تتحدثين عنه يا أمي؟

لم تعجب أمه بلهجته الضجرة، لكن الأمر كان يستحق المحاولة.

ـ لا تضيّع وقتك، فقد كنت أتحدث مع تارا. في الحقيقة، يا نيال، إذا كنت تريد أن تخفي عني سراً فلا تفضِ به إلى تارا، لأنها أسوأ من يحتفظ بالأسرار. أخبرتني أن هذه الفتاة جيدة جداً. ولكن، بما أن تارا ترى شيئاً من الصلاح حتى في المجرمين، فأنا أحتفظ بحكمي إلى ما بعد. أما بالنسبة إلى كلامك الفارغ عن (التعوّد على الوضع)...

ووصلت إلى أذنيه آهة ساخرة.

ـ منذ متى أصبحت حريصاً بهذا الشكل؟ ما هو العيب في الفتاة؟

ـ أنا لست واثقاً مما إذا بإمكان هولي أن تتزوج، يا أمي.

ـ أنا واثقة من أن بإمكانك اقناعها. فأنا أسمع دوماً من النساء عن مقدرتك على الإقناع.

بقي نيال، وهو المعتاد على تهكم أمه، صامداً مستمتعاً بدعاباتها. لطالما كانت أمه صريحة بالنسبة إلى تعليقها على مزاياه، ولكن، كما تقول هي، بطريقة بنّاءة.

ـ لا يمكنني أن أعد...

ـ لا شيء جديد، إذن. أنت رجل مراوغ ولتعلم أننا، أنا وأباك، ذاهبان مع «كريس» و «جود» لنقيم معهما شهراً فلا بد أن تحضرا إلينا في عطلة الأسبوع هذه.. إلا إذا كنت تريدني أن أحضر بنفسي إلى المدينة للتعرف إليها.

ـ سنراكم في عطلة هذا الأسبوع، يا أمي.

هناك أشياء في الحياة لا يمكن تجنبها. أخذ يفكر في ذلك وهو يضع السماعة ثم يعود فيطلب رقماً آخر على الفور. كم الساعة في نيويورك الآن؟

* * *

وقفت هولي وسط السوبر ماركت، تسوّي حقيبتها الصغيرة المدلاة فوق كتفها، ثم جذبت إلى أسفل، كمي سترتها المثنيتين. وعبست وهي ترى

لطخة تراب على مقدمة حذائها الجديد. وعندما كانت ما تزال مرتبكة قليلاً، لوّح أحدهم بشيء لامع تحت أنفها. فميّزت للحال ذلك العطر الخفيف.

وكاد قلبها يتوقف عن الخفقان. كانت تتأمل المعروضات أمامها فأحست بقبضة قوية تطبق على بطنها ولم يكن أمامها إلا الانحناء لتخفيف ما شعرت به من ألم. لم تبذل جهداً فورياً لتواجه هاتين العينين الزرقاوين المغناطيسيتين. وبدلاً من ذلك، جذبت أنفاسها أولاً، ثم شعرت باشمئزاز عميق للاثارة الخرقاء التي تملكتها.

ـ ما هذا؟

وما كانت تعلم جيداً ما هو، كان خاتماً... خاتماً من الياقوت الأزرق سبق وأن رأته من قبل. ورفعت يدها تمسح العرق فوق شفتها العليا، بينما التصق قميصها بظهرها.

ـ على الأقل، لم تقل (من أنت؟).

وأخذ نيال يتأمل اللمعان العدائي في عينيها القاتمتين المسمّرتين على وجهه. البداية من الصفر قد تبشر بالنجاح. ومع ذلك، فقد كان مستعداً لردة الفعل هذه. وهنأ نيال نفسه لاستعداده ذاك لكل شيء. أو ربما هذا غير صحيح... فهو لم يكن مستعداً تماماً لقوة هذا التوتر الذي كان يثز حولهما.

شردت عيناه بنظرة سريعة شاملة. وودّ لو يستطيع أن يحيط خصرها النحيل وذلك الجسد الذي تغطيه هذه الملابس... لكنه يعلم جيداً أيضاً أنه لا يستطيع هذا وسط هذه الجموع للأسف.

ـ وما الذي تفعله هنا؟

سألته وقد جف حلقها.

ـ أتتسوقين؟

ونظر حوله إلى الرفوف التي تحيط بهما. انتقلت نظرات هولي المشككة من عربتها المحمّلة بالحاجيات إلى يديه الفارغتين.

ـ أريد أن أفضي إليك بشيء. عليك أن تحمل سلة. فلا شك أن رجال

النحري الآن قد وضعوك تحت المراقبة بصفتك شخصاً مشبوهاً.

وفي الواقع، في بذلته الرائعة التفصيل، كان يسترعي الإنتباه، ومعظمه من النساء.

لم تلم هولي المتسوّقات الأخريات لحملقتهن هذه، لأن الرجال أمثال نيال لا يشترون غالباً علب البازيلا من السوبرماركت... فهؤلاء الرجال الذين يبدو عليهم التململ والاكتئاب في إعلانات مصممي أزياء الرجال، لا يدخلون مكاناً عاماً بدون أن يثيروا همهمات الحاضرين...

ـ كنت أرجو أن أصادفك.

إنها كلمات كفيلة بأن تبهج قلب أي متسوقة عازبة مستوحشة لا تعلم، مثلها هي، أي نوع من الأفاعي هو.

ـ ترجو؟ ظننت أنك لم تصدق أنك تخلصت مني.

ـ إن قنوطي، في الواقع، هو الذي قال ذلك.

فبادلته الحملقة بعدم اكتراث، فعاد يقول.

ـ لا بأس، كانت خطة مدروسة وليس مصادفة. لقد رأيتك تغادرين شقتك، فتبعتك.

ومنحها ابتسامته الساحرة الظافرة.

ـ لم يترصدني أحد قط من قبل، ولا أظنني أحب ذلك.

ماذا كان يفعل هنا بحق جهنم؟ راحت تفكر في احتمالات مختلفة، لكن أيّاً منها لم يقنعها.

حسناً، كوني واقعية يا هولي. لا تظني أنه سيخبرك بأن ابتعاده عنك سبّب له أرق الليالي. ورغم أن الفضول يكاد يخرجها عن طورها، إلا أنها تفضل الموت على أن تعترف له بهذه الحقيقة المعيبة.

ـ أنا بحاجة إلى معونتك.

ـ لا.

وأدارت ظهرها إليه وأخذت تكوّم المعلّبات في عربتها.

كانت اليد العريضة على كتفها خفيفة الوزن، لكنها لا تتزحزح.

ـ أنت لا تعلمين ما سأقول.

فردت بحدة.

ـ لا حاجة بي لأن أعلم. الجواب ما زال (لا).

رآها مستمتعة حقاً بلفظ هذه الكلمة. لم يسمع قط كلمة مثل هذه، تُلفظ بمثل هذا التلذذ. وانتظر لحظة قبل أن يُفسد عليها متعتها.

ـ هل لديك قطة؟

نظرت هولي إلى كومة المعلبات في عربتها، ثم قالت بضعف:

ـ لا، لم أجلب قطة بعد. لكنني أريد أن أكون مستعدة.

لم يهزأ من هذا التفسير المضحك. لا بد أنه متلهف حقاً، كما أخذت تفكر متأملة. وخطر في ذهنها أنها تمسك بمصير نيال ويسلي بين يديها. وكانت هذه فكرة مريحة ودافئة، أتراه سيتضرع إليها؟ ونظرت إلى ملامحه السمراء الكئيبة. ثم استنتجت بأسى أن هذا تصنع منه... لأن هذا الرجل لا يملك ذرة من التواضع في جسده الجميل هذا.

ـ لدينا قطط في البيت.

وإذ افترضت أنه يتحدث عن بيت العائلة الضخم، وليس عن منزله في المدينة، قالت:

ـ هذا جيد لأجلك.

ـ أنا واثق من أنك ستحبينها.

فقالت بعد أن فقدت صبرها لدورانه حول الموضوع.

ـ هل لك أن تدخل في صلب الموضوع؟ ليس لدي وقت طويل.

ـ أريدك أن تتظاهري مرة أخرى بأنك خطيبتي.. في عطلة الأسبوع فقط هذه المرة. فقد اتصلت تارا بأمي وأخبرتها عنك، وهكذا دُعينا معاً لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. والداي سيسافران الأسبوع القادم، وعندما يعودان سندّعي بأننا انفصلنا عن بعضنا البعض، وتكون تارا قد عادت إلى صديقها، عندئذٍ لن يكون للأمر أي أهمية.

لن يكون للأمر أي أهمية... آه، لا. العبث بحياتها على هامش قائمة

أولوياته. شبكت هولي ذراعيها على صدرها ونظرت إليه غير مصدقة.

ـ لا يمكن أن تتصور ولو لحظة واحدة أنني سأوافق على هذا.

ـ ليس لأجلي.

فقالت بحدة:

ـ ماذا تعني؟ ليس لأجلي؟

ـ كنت أتحدث مع روينا منذ مدة وقد شرحت لها الوضع. فرأت أن الأمر مسلٍّ للغاية.

وخيّل إلى هولي أنها تسمع ضحكة أختها الموسيقية.

ـ وكنت أظن أنني أنا من يملك روح الدعابة.

ـ قالت إنها واثقة من أنه يسرك أن تساعدي أحد أفضل أصدقائها.

وابتسم هو يرى عيني هولي الداكنتين تحملقان فيه، بينما الرعب يملأها تدريجياً وتابع يقول:

ـ دعيني أتذكر...

وأخذ يفكر وهو يربّت على أنفه.

ـ قالت لي إنّ (الخدمة تستحق مقابلاً) أو شيئاً كهذا... آه، نسيت تقريباً. جعلتني روينا أعدها بأن أسألك ما إذا كنت مسرورة بالإقامة في شقتها.. هل هي دون إيجار؟

ها هو ذا الآن يوحي إليها بأنها لم تدفع شيئاً، ولا يأخذ في الحسبان أنهما أختان. كما أنّ أختها هي من أصر عليها بأن تسدي إليها خدمة بالإقامة في الشقة لا العكس، وقالت له وهي تهتز غضباً:

ـ أتقول لي بأن روينا ستطردني من الشقة إذا أنا لم أساعدك؟

فقال مستنكراً بلطف:

ـ لا أظن روينا تفعل هذا، أليس كذلك؟ لا، ولكن قد تشعر بجرح في كرامتها إذا أنت لم تقدمي خدمة صغيرة لصديقها، هذا كل شيء. لا إرغام في الأمر، لكنها قد تصاب بخيبة أمل...

لا إرغام في الأمر... آه، لا... ليس كثيراً! واستشاطت غضباً:

ـ أنت ابتزازيّ قذر!.

ولمعت عيناها بالاحتقار. كم تتمنى لو تصفعه وتمحو عن ثغره هذه الابتسامة المغرورة! واتسعت حدقاتها وهي ترى الفتاة الجالسة إلى طاولة البيع، تضحك بصوت خافت. فقد سمعت هولي تسرد صفاته بصوت مرتفع.

ـ كانت روينا واثقة من أنك ستقومين بالعمل الصائب. فقد قالت لي إنك متمسكة بالقيم والشرف وما شابه.

احمرّ وجهها وقالت ساخرة:

ـ ما أكثر معرفتك بهذه الأشياء، ثم كيف تجرؤ على أن تتحدث عني مع أختي؟

فاتسعت ابتسامته المثيرة للغيظ.

ـ أتخافين من أن أفضح أسرارك الخفية؟

هزت هولي رأسها فاهتزت ضفيرتها القصيرة:

ـ ليس لدي أسرار.

فهز رأسه بعطف:

ـ هذا ما قالته روينا.

تنفست هولي حانقة. عندما ترى أختها..! لقد أوقعها في الشرك. كان يعلم أنها لن تخذل روينا. فهي من ساعدها في شراء كتبها الطبية الباهظة الثمن لأن والديهما لم يكونا ميسورين.

أمسكت بقبضة عربتها بشده ابيضّت معها مفاصل أصابعها، ثم سألته بإذعان عابس:

ـ متى تريدني؟

ارتفع حاجباه بسرعة، فأجفلت، ثم قالت له بكبرياء ثلجية:

ـ لا تخف، لست أعرض نفسي.

ـ هذا مؤسف.

قال ذلك بابتسامة عريضة فتوترت شفتاها، وسرت في جسدها

قشعريرة خدّرت أحاسيسها.

ـ دع المشاهد المسرحية الزائفة هذه لجمهورنا، ولا تلمني إذا اشتبهوا في أمرنا خلال الدقائق الخمس الأولى.

ـ علينا فقط أن نقنعهم، أليس كذلك، يا هولي؟

وفكر قليلاً.

ـ ألا تظنين أن علينا أن ندعو بعضنا البعض باسم تدليل، لكي نضع في الأمر بعض العمق؟

ـ ما الذي يدور في ذهنك؟

بإمكانها أن تفكر في اسم أو اثنين تتمنى لو تطلقهما عليه.

ـ ما رأيك في اسم «بوبيت»؟ أي الصغيرة المحبوبة؟ لأنني هكذا أراك.

زمجرت هولي بشكل لا يمت لأي «بوبيت» بصلة:

ـ إذا كنت تريد أن تعيش، فلا تدعني بهذا الاسم أبداً.

ـ كما تشائين..

قال هذا بشفتين مرتجفتين، بينما سارت هي بعنف مصدرةً جلبة واضحة. ولا بدّ من أن ما من بيضة واحدة ستبقى سليمة من الكمية المسجلة على قائمة مشترياتها.

* * *

ـ أختك اذن متزوجة من أميركي وتعيش في «مين»؟

كان رأس هولي يدور لكثرة المعلومات التي كان يغذيها بها بالإكراه أثناء رحلتهما إلى خارج المدينة.

ـ لا. إنهما يعيشان في نيويورك. لديهما منزل صيفي في «مين»، وهو الذي كان توم يقيم فيه. لديهما ابن يكبر توم بسنتين، وكذلك طفلاً رضيعاً. لقد نبهت أمي إلى أننا سنخبر توم عن زواجنا في الوقت المناسب، وبالنسبة إلى توم ستحترم رغبتي.

وكان يتمنى فقط لو أن هذا الاحترام يمتد إلى أشياء أخرى في حياته.

ـ لذا لا تخافي بالنسبة لهذا الأمر.

عندما كان يتحدث بهذه الطريقة، كان الأمر يبدو حقيقياً. وكانت هولي تتفاجأ أحياناً من نفسها عندما تستعيد في ذهنها بعض التفاصيل العائلية، فتشعر أنها ذاهبة فعلاً لتتعرف إلى أهل زوجها المستقبلي، ولكن لحسن الحظ، كان عقلها لا يلبث أن يواجهها بالواقع.

ـ هذا غير عادي، أليس كذلك؟

ـ ما هو غير العادي؟

ولم يحوّل عينيه عن الطريق. وكما توقعت، كان نيال سائقاً ماهراً، لكنه ليس متهوراً، ما أدهشها نوعاً ما.

ـ ليس من المعتاد، بالنسبة إلى طفل، أن يعيش مع أبيه. ومما تذكرته من روايات الصحف، كان توم لا يزال طفلاً رضيعاً عندما انفصل والداه... وأنت لست...

ـ لست مدرباً على العناية بالأطفال؟

قال هذا بجفاء. وكأنها رأت أنها تكلمت أكثر من اللازم، فسكتت فجأة... ولكن ليس طويلاً، إذ قالت دون تفكير:

ـ ولكن كيف أمكن لتارا...

فقاطعها بقوله وهو يلقي على وجهها نظرة كالثلج.

ـ أن تهجر طفلها؟ هي لم تهجره. بل تراه كلما استطاعت. وهو يقيم معها عندما تسمح له الظروف بذلك.

وهذا لا يحدث نظراً لنوع عمل تارا... كما أخذت هولي تفكر وهي تنظر إلى جانب وجه نيال، مبقية هذه الملاحظات لنفسها. وتابع يقول:

ـ إنها تحبه كثيراً، لكنه يعيش معي.

ـ لم أكن أنتقد الوضع.

ـ بل كنت تفعلين ذلك. وأنت لم تقولي شيئاً لم تسمعه تارا، أو لم تواجه به، أو لم تقرأه في الصحف ألف مرة من قبل. سمعت كل تعليقات المنافقين والمتظاهرين بالصلاح عن (المرأة غير الطبيعية التي هجرت طفلها) وغير ذلك.

وتبع كلماته صمت متجهم قال بعده:

ـ ليس لديك فكرة...

ـ لا، ليس لدي، ولكن إذا كان كل شخص آخر هناك، في العطلة الأسبوعية هذه، لديه فكرة، أليس من المحتمل جداً أن أسيء التصرف؟

ذلك أن جهلها قد يسبب انهيار مشروعه هذا. وبدت مسحة هزل على وجهه لحظة:

ـ مما رأيته منك، من الممكن جداً أن تقومي بأسوأ التصرفات. لكنني أرى أن الحق معك. وهذا هو درس التاريخ... كانت تارا البكر في أسرة كبيرة... تضم عشرة أولاد فقراء، يتامى الأب أمّا الأم فواجهت واقعها المرير بحبوب منع الاكتئاب التي كان أطباء مثلك، في ذلك الحين، يناولونها للمريض كحبوب الحلوى.

رأت هولي في عينيه وكأنه يحملّها، بشكل ما مسؤولية تردّي مهنة الطب منذ عشرين عاماً لكنها لم تقاطعه. كان منفعلاً للغاية وقد بهرتها الصورة التي رسمتها كلماته الكئيبة.

ـ وفي الوقت الذي كان ينبغي عليها فيه أن تلعب بدُماها، كانت تارا تربّي اخوتها وأخواتها، إلى أن تزوجت. لقد سبق وأدّت تارا دور الأم دون وجود أب. حاولت أن تكرر ذلك مع توم، فأصبحت تعيسة للغاية. ورأت أنها وقعت في شرك. ربما كان الأمر أسهل عليها لو كانت لا تزال تحبني، لكن ذلك لم يحدث. إنك الآن تعلمين عن الأمر بقدر ما تعلم أسرتي إن لم يكن أكثر. هل أنت راضية الآن؟

قال هذا بجفاء. وبدا لها من حديثه أنه شديد الاهتمام بطليقته.

ـ هل أخذت توم محاولاً بذلك رأب الصدع في زواجك؟

ما إن خرجت هذه الكلمات من فم هولي حتى أدركت خطأها. فما كان عليها أن تقولها، وبالرغم من ذلك، لم يكن عليه أن ينظر إليها وكأنها تتهمه بالإجرام، فقد كان هذا الشك منطقياً بعد أنْ ذكر أنَّ زواجهما قد

انتهى، وهي شخصياً تعرف شخصين قد استغلا طفلهما لاصلاح حياتهما الزوجية.

ـ هذه ناحية حتى الصحف الشعبية لم تنتبه إليها. ويبدو أن ما يربحه الطب هو ما تلقي به الصحف في مزابلها.

أجفلت هولي. أدركت أن هذه إهانة كبيرة، جاءت من رجل سبق وجعلته الصحافة متوحشاً. فقد اتهمته بانعدام الوطنية لأنه ترك السباق بعد حصوله على المركز الأول حين كتبت: هل فقد أزرق العينين أعصابه؟

وفيما بعد أصبح الزوج المخلص الذي هربت منه زوجته القاسية تاركة إيّاه مع طفله. على هذا القدر من القساوة كانت لسعات الصحافة وقسوتها.

ـ بما أنك بالغة الفضول لمعرفة الظروف التي أحاطت بإنجاب توم، سأخبرك.

ودون كلمة أخرى، أوقف السيارة بجانب طريق ريفي هادىء، ثم أطفأ المحرك.

ـ لا حاجة بك لذلك، صدقني.

قالت له هذا بقلق، لكنه تجاهل كلماتها تماماً. ودون اهتمام بارتباكها، أمسك بذقنها يدير وجهها إليه.

قد يكون الفضول ردة فعل عادية عند الإنسان، لكن نيال لم يكن في مزاج يسمح له بالتفهم. وكلماتها أيقظت في نفسه ذكريات عدائية كان يريد أن ينساها.

عاد قلقه إلى الظهور مجدداً. فربما تعود هذه القصص القديمة بشكل ما، لتطل برؤوسها البشعة وتؤذي توم. نظر إلى وجهها المضطرب دون عطف. الناس الذين يتخبطون بحمق في ما لا موجب له، عليهم أن يتوقعوا سماع أشياء قد لا تعجبهم، ومن يتدخل في ما لا يعنيه يسمع ما لا يرضيه.

ـ لقد حملت تارا بتوم دون تخطيط مسبق، ولم يسعدها ذلك.

وسكت لكي تستوعب كلامه، ناظراً إلى حمرة الإرتباك التي توهجت في

وجنتيها.

ـ حدث هذا أثناء آخر محاولة لنا لجعل الأمور تسير بيننا. نعم، الطفل هو ابني وإن كنت لم أطلب اختباراً للدم للتثبت من ذلك. هل روى ذلك فضولك؟

وأخذ ينظر إلى وجهها باحتقار، وجعلها الإزدراء في صوته تتململ بضيق في مكانها.

حتى وسط هذا التحقير، أصرت مخيلتها على رسم صورة جميلة عنه.

جعلها شعورها بالعجز تحدق إليه بعداء، ثم تجذب ذقنها من قبضته بغضب.

ـ لا تغضب عليّ لأن زوجتك فضّلت عليك رجلاً آخر.

وزمت شفتيها دافعة خصلة من شعرها الأحمر عن وجهها.

ـ أنا لا أريد أن أكون كبش محرقة لها.

أخذ ينظر إليها بعينين ضيقتين وهي تبلل شفتيها بلسانها ماسحة عنهما آخر بقايا صبغة الشفاه، فبدا لونهما الطبيعي أكثر جاذبية. لا، رغم نحافتها البالغة، كانت بالغة الأنوثة. شعر نيال بحنق بالغ، وبدافع ملح للانقضاض عليها ليعانقها. وكان هذا أيضاً ذنبها هي. ومن حسن حظها لم يكن هو بالرجل الذي يتبع، بشكل أعمى أي غريزة دنيئة.

ـ من السهل رؤية ما رأيته أنت في تارا.

وعلى الرغم من أن إعجابه بزوجته ما زال حياً في نفسه، تابعت تقول:

ـ من الصعب كثيراً معرفة ما رأته هي فيك.

أسندت رأسها الجميل إلى الخلف بخيلاء. فنسي نيال ترفّعه عن غرائزه الدنيئة.

كان عناقه، في البداية، غاضباً كعينيه. ثم، عندما أخذ يتعمق في حلاوة ذراعيها الدافئين، وصدر عن هولي آهة خافتة، أصبح عناقهما أكثر خطورة.

لم تكن هولي تفكر في الخطر . . . لم تكن تفكر على الإطلاق . . . كانت تشعر فقط! كانت حواسها تتفجر. وأصابعها تغوص في شعره الأسود الكثيف حتى أن كيانها بأجمعه ارتعش من فيض السعادة.

لم يعد غاضباً . . . ولم يعد هذا العناق عقاباً . . . بل تعبيراً عن احساسه بالاطمئنان إليها، والاعتراف بتأثيرها عليه. لم تعرف هذا الشعور من قبل حتى في أجمل أحلامها.

مرّت دراجة نارية بهما فخرجت هولي من شرنقتها المحمومة وهي تصرخ وترفس. واستفاق عقلها الغارق في الأحلام فجأة، لتدفعه عنها بيديها الواهنتين:

ـ هذه حماقة بالغة. نحن في ضوء النهار، وعلى الشارع العام . .

كان وجهه الأسمر المتوهج قريباً جداً من وجهها عندما فتحت عينيها مرغمة.

ـ الحق معك. ليس هذا بالمكان ولا الوقت المناسبين لتفعل ما نريده.

افتراضه هذا ومفهومه، جعل عينيها تضيقان.

ـ إنك تستعمل ضمير الجمع، وبشكل مفاجيء.

كانت هولي جريئة، بالإضافة إلى عنادها. لقد عانق نيال ويسلي فتاة، فاعتبرها أصبحت ملكه . . . ونظراً لمهارته في المعانقة، لم تدهشها طريقة تفكيره! لكنها لا تريد أن تصبح مجرد حدث عارض في حياة أي رجل! كان ينظر إلى ساعته، ما يظهر أن عناقهما استغرق وقتاً طويلاً.

ـ قد لا أكون رجلاً مهذباً وأنا أذكر هذا، لكنك لم تتصرفي وكأن المشاعر هزمتك.

فقالت متنازلة بسخرية:

ـ لم تكن تنقصك المهارة.

ـ شكراً، يا سيدتي.

وأحنى رأسه شاكراً بسخرية.

ـ ذلك القليل من العفوية لا يفيد.

ومالت برأسها إلى جانب، محاولة التفكير في المشكلة.

ـ بعض تحركاتك تبدو مبتذلة، إذا كنت تفهم ما أعني.

تملكها الضيق حين رأته لم يعبأ بقولها هذا ولم يَبدُ عليه أنه جُرح. بل ألقى برأسه إلى الخلف وأخذ يقهقه ضاحكاً بصوت مرتفع. لكن الطريقة التي أطلق فيها نفسه على سجيتها ضحكاً ومرحاً، استهوتها.

ـ أعرف بالضبط ما تعنين. لا تقلقي، لأنني لن أخطىء أبداً فأظنك امرأة أخرى، حتى ولو كان الضوء مطفأ.

لم تعرف هولي تماماً كيف تتصرف إزاء هذه الملاحظة الغامضة . . . قد تكون مديحاً . . . ثم قد . . . وقالت بصوت كالفحيح:

ـ لا أظنني أطفىء المصباح أبداً عندما تكون موجوداً.

فاتسعت عيناه استحساناً:

ـ أحقاً؟ كم نحن منسجمان، يا هولي.

ـ إذا تحدثت إليّ بهذا الشكل مرة أخرى، سوف . . .

ـ تابعي . . . ماذا سوف تفعلين يا هولي؟

ـ سوف أخبر الجميع بأننا غير مخطوبين.

فابتسم دون أن يبدو عليه القلق لهذا التهديد، ثم قال وهو يدير المفتاح في المحرك.

ـ حسناً، حالياً انسي الموضوع حتى نصل بسلام وإلاّ فجمالك سيفقدني تركيزي.

لاذت بالصمت وكانت واثقة من أنه كان يسخر منها. إذ ليس من الممكن بالنسبة إلى رجل عرف امرأتين رائعتين تارا وروينا في حياته، أن يُفتن بها ويضيع تركيزه بسببها.

***

استدار نيال حول الفناء المسوّر في مدخل الأسرة. ثم قاد سيارته خلف المنزل. كانت المباني الملحقة مشتتة متفرقة دون تخطيط حسب الطراز الإليزابيتي القديم.

قال لها وهو يفتح لها الباب:

ـ الأسرة تقيم حفلة شواء، وقد تأخرنا.

كانت أمه تحب الدقة في المواعيد ولم يخفف من ذلك مرور خمس وثلاثين سنة على زواجها من أبيه الشارد الذهن.

سلخت هولي نظراتها من ذلك المبنى الرائع الذي يسميه، بكل بساطة، بيتاً، وأدركت أنه لا يمكنها حتى أن تتظاهر بالإرتياح في هذا المكان... ومع هؤلاء الناس. وهزت رأسها ببطء، وقد جمدت مكانها رعباً:

ـ لا يمكنني القيام بذلك، يا نيال. كنت أظن بإمكاني هذا، ولكنني عندما أصبحت هنا...

ـ هل هو التوتر الذي يحدث في الليلة الأولى؟

فأخذت تصطك أسنانها.

ـ أنا طبيبة ولست ممثلة، العشاء مع تارا شيء، ومع أهلك...

وتلاشى صوتها بتعاسة.

ـ كما أنك لم تساعدني بشيء. حتى أنني لم أعرف ما ينبغي أن أحضر معي من ثياب...

وأخذت ترتجف وقد ازداد استياؤها منه.

ـ ليسوا من الأسرة المالكة كما تعلمين، فالبلاد تعجّ بالنبلاء الفقراء الممحلين، وأنا نفسي أضع اللوم في هذا لعدم اختلاطهم بعامة الناس طوال قرون.

ـ لكن أسرتك لم تمحل أو تفتقر.

ـ هذا صحيح. ولكن عليك ألاّ تستعملي هذا الأمر ضدنا. أمي كانت ابنة فلاّح إرلندي يعمل في الأرض، إذا كان في هذا ما يعزّيك.

ولكن كون أمه فلاحة غريبة لم يغير الوضع.

ـ لقد فات الأوان للتراجع، يا هولي. يبدو لي أن هناك من شعر بقدومنا. هيا بنا، سيكون الأمر سهلاً تماماً.

وأمسك بيدها يشدّها من السيارة، فاصطدمت بصدره، بينما كان يتابع.

ـ وقد تستمتعين هنا تماماً.

ـ من المؤكد.

قالت هذا وهي تحاول أن تدفع نفسها بعيداً عن ذلك الصدر الفولاذي الذي جعل مخيلتها تشرد بعيداً. وقالت لاهثة:

ـ دعني أقف وحدي.

ـ لا.

قال هذا وهو يشدّها إليه واضعاً ذراعه حول خصرها.

ـ ربما يراقبوننا.

قال هذا مقابلاً حملقتها الإجرامية فيه بابتسامة حازمة وقد أطبق أسنانه.

ـ وعلينا أن نبدو أمامهم مثال الانسجام والتوافق. الإنطباع الأول، يا حبيبتي، هو المهم.

لكن هولي لم تهتم بالإنطباع الأول مقدار ذرة.

فرفسته على ساقه بقوة:

ـ لماذا يا...

ـ لقد سبق وأنذرتك.

نظر إليها بابتسامة متوعدة بالقصاص وهو ما زال يفرك ساقه ثم قال بمرح: «إنها غلطتي. لطالما علمتني مربيتي أن أقابل القسوة باللطف...».

ـ آه، كلا..!

صرخت هولي عندما تكهنت بنوع (اللطف) الذي يفكر فيه.

ـ إذا عانقتني، سيكون هدفي في المرة التالية، أكثر ضبطاً وتركيزا.

وكانت تأمل أن يعطي هذا التهديد الرهيب التأثير المطلوب.

وقف نيال ينظر بعينين ضيقتين إلى وجهها الغاضب وقد بان الفضول

على ملامحه :

ـ من الممكن أن تفعلي هذا، أليس كذلك؟

وكان في صوته بداية اعجاب على الرغم منه .

* * *

٥ ـ الابتزاز

ـ يبدو لي أن من الممكن جداً أن تفعل ذلك . . .

تناهت إليها هذه الكلمات من الخلف . كان الصوت جافاً هازلاً .

فاستدارت هولي وقد توهج وجهها ارتباكاً .

ـ كنت أقول دوماً إن ما يحتاجه زوجي، أحياناً، هو رفسة سريعة على قفاه . . .

وارتجف فمها الحازم .

توقعت هولي أن تكون هذه المرأة والدة نيال . وعلى الرغم من أنها أخذت تهديد هذه الفتاة لابنها بالعنف الجسدي على محمل حسن جداً، تمنت هولي لو أن الأرض تنشق وتبتلعها .

ـ كم يسعدني أن أتعرف إلى شابة تماثل أفكارها أفكاري .

وتقدمت المرأة الطويلة الممتلئة بالحيوية، نحوها مادّةً يدها .

لم تكن اللايدي ويسلي كما توقعتها هولي . كانت طويلة نحيفة قوية الجسم ولكنها لم تكن جميلة وبدت فتيّة بشكل ملحوظ رغم الشيب الذي يتخلل شعرها .

ـ مرحباً . . .

ابتدأت هولي بضعف ثم سكتت . بماذا تدعوها؟

ـ ادعيني «بيف» وسأدعوك «هولي» .

وكانت يدها حازمة كسلوكها . .

www.liilromancia.com

- تأخرت، يا نيال.

قالت هذا لابنها عابسة.

ابتسم نيال لكنه لم يعتذر لتأخرهما. وكان قد شعر بالارتياح لأنّ أمه اعتبرت ما جرى مشاجرة بين عاشقين. وفكر متأملاً بأن الأمر قد يكون حقاً كذلك.

- أين توم؟

سألها وهو يتحرق شوقاً لرؤية ابنه.

- مع الرجال الآخرين، يتعلم كيف يتلف الطعام الشهي ويحيله إلى فحم. ما زال متأثراً باختلاف التوقيت بعد وصوله. لقد تأرق لساعات، ليلة أمس، بسبب مكالمتك المثيرة.

ابتسم نيال الذي شعر هو أيضاً بالإثارة بعد ذلك الاتصال.

- لقد توقفنا في الطريق لنستمتع بالمناظر.

عاد وجه هولي إلى الإحمرار عندما نظر إليها ساخراً.

- ومنذ متى أصبحت مهتم بجمال الطبيعة؟ لقد كنت تجد الإلهام داخل المحركات القذرة المزيّتة.

- إنني أوسع آفاقي يا أمي.

وهذه المرة، ألقى عليها لمحة خاطفة أوهنت دفاعاتها على الفور.

- هيا بنا. أريد أن أرى توم.

كان قلب هولي يخفق بعنف، بعد ذلك الفحص الدقيق.. لكنها أطاعت تلك اللمسة الخفيفة على كتفها وتقدمت إلى الأمام. لم تظن كلمة (أريد) تعبر تماماً عن لهفة نيال إلى رؤية ابنه. ومهما كانت شخصيته، فهو أب مخلص للغاية.

- وأتباهى بهولي طبعاً.

وامتدت ذراعه حول كتفها بتملّك. شعرت هولي بكآبة عميقة مفاجئة، وأخذت تتساءل ماذا سيكون عليه إحساسها لو أن ذلك الحنان كان حقيقياً. قد تسمّر هاتان العينان الرائعتان الكاذبتان أي فتاة... وجاهدت لكي لا

تنتزع نفسها بعنف من قبضته المتسلطة.

- لقد تغير مزاجك فجأة.

وحوّلت «ميف» نظراتها الذكية إلى هولي التي ازداد اقتناعها بأنهما لن ينجحا. فلن يقتنع أحد ولو لحظة بأنها من النوع الذي يجذب نيال. بينما كانت المرأة تتابع:

- أتعلمين؟ كدت أبتز نيال لكي يحضرك هذه العطلة الأسبوعية إلينا، يا هولي.

يبدو أن الإبتزاز من عادات الأسرة. فكرت في ذلك وهي تنظر إلى جانب وجهه الشبيه بوجه الصقر، من تحت أهدابها الذهبية الأطراف.

- أحياناً يكون الأمر صعباً. لا يمكننا التخطيط لمواعيدنا الاجتماعية قبل وقت طويل. فأنا أتنقل في عملي باستمرار. ونيال يمتاز في الواقع بتمكنه من معالجة الأمور في آخر لحظة.

وألقت ابتسامة سريعة مشرقة نحو نيال لتسجل ردة فعله.

- ألست كذلك يا حبيبي؟

- نيال صبور؟

وبدت أمه وكأنها تضحك في قرارة نفسها.

- نعم، أخبرتني تارا أنك طبيبة. أعرف أنني قد أبدو عجوزاً إذا قلت لك إنك حقاً تبدين صغيرة جداً.

- أنا في الخامسة والعشرين.

ذلك أن هولي لم تجد سبباً يجعلها تخفي سنها الذي كانت مضيفتها تسعى لمعرفته.

- أرجئي الأسئلة إلى ما بعد يا أمي.

اقترح نيال هذا، وقد بدت في لهجته نبرة واضحة من الحزم. وشدد قبضته على هولي بينما اشمأزت هي من كلمة (ما بعد).

رغم أنها كانت تعلم أنه يحمي مصالحه وليس هي، شعرت بفيض من عرفان الجميل. غير أن شعورها سرعان ما تحول إلى استياء، عندما أراح

أصابعه على خصرها.

كانا في منتصف ممر ضيق متعرج تحف به الأشجار عندما التقيا بالمجموعة الثانية من المستقبلين.

واندفع أحد الصبيين الصغيرين في المجموعة نحو نيال. فما كان أمام الأخير ألا أن يترك رفيقته، ويشرّع ذراعيه للصبي.

- بابا... لديّ أمور كثيرة أخبرك عنها. رأيت حيتاناً... مئات منها. أصابني دوار البحر.

وأضاف مزهواً:

- يمكنني السباحة الآن مثل «دان» تقريباً.

- يكفي... يكفي!

أخذ أبوه يتضرع إليه ضاحكاً.

- أرجو أن تكون قد أحسنت السلوك مع العمة «جود» والعم «كريس».

ونظر بحرارة إلى الزوجين الشابين. رأت هولي المرأة نسخة مصغرة عن أمها مع شيء من الرقة، أما الرجل فكان نحيلاً وبالغ الطول، ويضع نظارتين على وجهه.

بدا وجه الصبي ملائكياً وهو ينظر إلى أبيه يلومه.

- لقد استمتعا بوجودي.

- أفهم من هذا أنك لم تشأ العودة إلى البيت...

المشكلة هي أنه كان يغيظه مداعباً، شاعراً بعدم أمان مفاجيء. ولكن، منطقياً، هل من الغريب أن يفضل ابنه العيش مع أسرة عادية؟ لقد أخذ كريس الصيف كله ليكون مع أسرته. بينما أنا...! يجب أن يكون لدي وقت أوفر. وقال الصبي:

- كان ذلك رائعاً، لكنني اشتقت إليك.

- نعم، وأنا أيضاً.

وبادله نيال الابتسام. بالرغم من نقص الميزات الأبوية فيه، كان الصبي

يبدو في حالة حسنة. وتساءل بشيء من الخجل ما إذا كتبت على جبينه عبارة (أب محب).

ثم داعب شعر ابنه الأسود ونهض واقفاً وسلّم على الرجل الطويل.

- شكراً يا كريس.

ثم عانق أخته بسرعة.

- هل ينام الطفل الآن طوال الليل؟

- هل هذه هي طريقتك في المزاح؟

والتفتت إلى هولي.

- مرحباً. لا بد أنك هولي.

ووجدت هولي تفحص تلك السمراء الجذابة الودود لها أقل تثبيطاً للهمة من تفحص أمها بكثير.

- أنا أخت نيال الصغيرة «جود أبلبي» وهذا زوجي كريس.

كان في عيني كريس الودودتين تفهم إزاء ابتسامة هولي المترددة:

- إنهم أشخاص مربكون. أليس كذلك؟ ولكنك ستعتادين عليهم.

قال هذا بلهجة أميركية بطيئة جذابة للغاية. لكن هولي كانت تعلم أنها لن تبقى طويلاً لتعتاد على أي شيء ما عدا الشعور بأنها ممثلة خادعة. وقالت ميف:

- إذا كنتم ستتركون أباكم وحده مع الشواء، أقترح أن نؤجل التعارف لحظات وإلا لن يكون هناك ما نأكله.

بدت ميف ويسلي في نظر هولي، امرأة منظمة جداً. توزع الأدوار للآخرين بعناية.

وألقت هولي نظرة ضارعة على نيال عندما تأبطت أخته ذراعها وأخذت تثرثر معها بمودة وإلفة. وشعرت بخطر ما تقترفه من خداع أمام هؤلاء الناس الطيبين وأحست أنها غير قادرة على التجاوب معهم بشكل طبيعي. لكنه تغاضى عن نظرتها تلك دون تعاطف، تاركاً ابنه يجره نوعاً ما ليسيرا أمام الآخرين.

واجهت هولي مفاجأة جديدة عندما وصلتا إلى فناء فسيح مشذّب بشكل جيد وافترضت أنه يعدّ فناءً هنا، في حين يعدونه في موطنها حقلاً... كانت تارا هنا هي أيضاً.

ـ هولي، ما أجمل أن أراك!.

وتقدمت الشقراء نحوها يغمرها سرور حقيقي. كان وضعها، بشكل ما، يناسبها تماماً، فهي تلبس عارضة ساقيها الرائعتي الجمال. وكانت، في الواقع، تتلألأ إشراقاً وجمالاً.

ارتابت هولي في أن تتجاوب مع عناق تارا الحار، فليس هناك نساء كثيرات يملكن من الثقة بالنفس ما يجعلهن يتقبلن وجود مطلّقة بجمال تارا.

ـ لم أكن أعلم أنك ستكونين هنا.

ـ آه، نعم. نحن أسرة واسعة للغاية.

وكان ثمة سخرية في صوت نيال العميق وهو يتقدم ليقف خلف هولي.

ـ من حسن الحظ أن لدينا ما يكفي من الغرف هنا لإقامة أمهات أولادنا السابقات...

قال هذا السير جورج ويسلي طاهي الطعام المتميز، وهو يمسح يديه بمئزره المخطط متقدماً الصفوف، تاركاً الشواء للجيل الأصغر. رأت هولي على الفور أن لنيال بنية أبيه المهيبة وأنف الأسرة، لكن ما أثر فيها أكثر، كان تشابه صوتيهما الجذابين.

بدلاً من أن يتجاوب مع دعابة أبيه، نظر إلى أخته بقلق. ولاحظت هولي أن الجميع راح ينظر إلى جود أيضاً.

ـ سأذهب لأطمئن على الطفل.

قالت جود هذا وهي تنظر إلى هولي بابتسامة متوترة قبل أن تسرع إلى البيت.

ـ حسناً، حقاً يا جورج إنك...

قالت زوجته هذا باشمئزاز فأجابها والضيق بادٍ عليه.

ـ لم أكن أفكر في جود. نيال هو الذي كنت...

ـ أخبر جود بهذا. سأذهب وأراها.

لكنّ كريس الذي بقي صامتاً طوال الوقت، قال برصانة:

ـ لا، يا «مييف». أظنها بحاجة إلى الإنفراد بنفسها بعض الوقت.

لم يبد الاقتناع على الأم، لكنها، لدهشة هولي، امتثلت لما قاله صهرها. ثم عادت فأدركت أن هذا لم يدهشها في الحقيقة.. إذ بالرغم من جوّ التواضع الذي يحيط بهذا الأميركي، فإن هالة من السلطة تحيط به أيضاً.

كان ثمة توتر مؤكد في الجوّ. ورأت أنها قد تكون الوحيدة هنا التي لا تعرف ما يجري. ولحسن الحظ، اخترق توم الصمت المربك في الوقت المناسب.

ـ أمي تقول إنك طبيبة.

كان قد ورث عن أبيه تلك العينين الزرقاوين، وتلك الطريقة في النظر مباشرة إلى الشخص، أيضاً. بعد عدة سنوات سيصبح بإمكان هذا الصبي أن يحطم من القلوب بقدر تلك التي يحطمها أبوه.

ـ نعم، أنا طبيبة.

ـ هل أنت طبيبة أبي؟ هل هو مريض؟

وقطب حاجبيه الصغيرين وهو يحاول حل لغز وجودها.

ـ لا يا توم. أنا لست مريضاً.

قال نيال هذا يطمئنه ويزيح عن عينيه الشعر الأسود الذي غطاهما فجأة.

ـ باستثناء تلك الرضة المؤلمة في ساقي...

وما كان أجمل تلك الحميمية التي بدت في ابتسامته الصغيرة الساخر. ولو أنها بادلته الابتسام بشغف، لافترض أن هذا جزء من دورها التمثيلي، لكن هولي ما كانت لتسمح لنفسها بهذا الضعف الأحمق. وقال نيال لابنه:

ـ أظن عليك أن تأخذ موعداً لقص شعرك.

لكن توم رفض تغيير الموضوع:

- إنها إذن صديقتك؟
- نعم. هي كذلك.
- آه... حقاً؟
ورفع كتفيه بحركة ذات معنى.
- لا يهمني ماذا يقولون عن حماوات الشعر.
قال هذا وهو يتفحص برزانة هولي البالغة الإرتباك...
- أظنها جميلة للغاية.
وركض إلى جده الذي كان يستحث المجموعة على تناول الطعام بسرعة قبل أن يهطل المطر.
أخفى الكبار الهزل في أنفسهم ما عدا هولي التي تنهدت بارتياح لخلاصها من ذلك الاستجواب. وانحنى نيال يهمس في أذنها برقة:
- يجب أن أسأله ماذا يقولون عن حماوات الشعر.
- ألا تشعر ولو بذرة من الشعور بالذنب؟
- ولماذا؟
- لأنك تكذب على أسرتك؟
- إننا نكذب يومياً في حياتنا... حتى أنت، يا دكتورة باريش... ولذا استعيدي ابتسامتك الصغيرة المتظاهرة بالصلاح واحصلي على محبة كاملة لا نقاش فيها.
فقالت بانفعال:
- هذا في أحلامك.
- في أحلامي وأحلام كل رجل آخر على سطح الأرض.
قال هذا بابتسامة عريضة.
- إذا أردت أن تنسجمي مع أبي، كلي من طعامه.
ثم قادها من يدها نحو بقية أفراد الأسرة المجتمعين حول مائدة أقيمت تحت مظلة كبيرة.
- لا أستطيع أن آكل، أشعر بالغثيان.

فأعلن بقسوة دون اعتبار لنفسيتها المعذبة:
- سنشعر جميعنا بالغثيان عندما نأكل الطعام المحترق. وسيكون من حسن حظنا جميعاً أن يكون لدينا طبيب في البيت.
رغم قدم هذا المنزل التاريخي وفخامته، لم يكن يشبه المتحف، فقد كان في الأصل بيتاً ككل البيوت، يحتوي على الكثير من الأغراض الشخصية التي تحدّث عن الناس الذين سبق وعاشوا فيه. بقيت هولي توحي إلى نفسها بذلك. لم تشأ أن تعطي انطباعاً بأن ما حولها بعث الرهبة في نفسها.. حتى ولو كان ذلك صحيحاً.
- أخذوا حقائبنا إلى الطابق الأعلى.
ظهر نيال فتوقفت عن التحديق ببلاهة إلى الثريا التي كانت ربما بحجم غرفة الجلوس في بيتها.
- تعالي، سأريك.
ودون أن ينتظرها، أخذ يصعد السلم.
- هذا أقدم جزء في المنزل.
أومأت هولي، إذ لاحظت أن السقف أكثر انخفاضاً من سواه. من المفترض أن هذا هو البناء الأصلي للمنزل الذي طور في ما بعد ليشبه غيره من قصور القرون الوسطى.
- لقد وصلنا.
وفتح باباً من خشب السنديان، ثم تنحّى جانباً ليدعها تمرّ.
- هذا جميل.
كانت غرفة ظريفة للغاية ولاحظت أنها مزينة بألواح من الخشب، حسب الطراز القديم ويتوسطها سرير كبير.
سارت نحو النافذة وهتفت باستحسان. كانت تطل على الحدائق الإيطالية الطراز والبحيرة خلفها. إتكأت بمرفقيها على العتبة الحجرية، ثم مدت رأسها لتتمكن من الرؤية جيداً.
- احذري.

وأمسكت يد بكتفها تعيدها إلى الخلف.

الدوار الذي شعرت به هولي وهي ترفع بصرها إلى وجهه الأسمر، لا علاقة له بالدوار الذي يصيب المرء في المرتفعات. كان ينبغي أن تقول إنها ليست بحاجة إلى أن تسندها اليد التي أحاطت بخصرها، لكنها، لسبب ما، لم تفعل وبقيت اليد مكانها خفيفة لكنها بعثت في نفسها الإضطراب.

ألهاها عن مشاعرها تلك منظر حقيبة من الجلد موضوعة إلى جانب السرير الأخاذ. فسألت:

ـ أحضروا إليّ حقيبة أخرى، أم لعلها ليست غرفتي؟

وعندما اغتنمت الفرصة لتبتعد، أبعد يده عنها.

ـ أنا لم أقل إنها غرفتك. قلت إنها غرفتنا. وهذه حقيبتي...

واتسعت ابتسامته.

تسلل الرعب إلى ذهن هولي ببطء. هزت رأسها ببطء. ما الذي يتحدث عنه هذا؟ (غرفتنا)؟ لا... لم يقل شيئاً عن (غرفتنا)... هذا شيء كانت ستلاحظه حتماً.

ـ هل تتوقع مني أن أشاركك الغرفة؟

وضحكت بتوتر وهي ترفع يداً مهتزة إلى رأسها.

ـ هذا ليس ما أتوقعه أنا، بل ما تتوقعه أسرتي عندما نتزوج.

وكان في ابتسامته العفوية ما أثار مخاوفها.

ـ كنت تعلم أنها وضعتني هنا.

ثم انبلجت لها الحقيقة فجأة.

ـ هل هذه غرفتك؟

فقال برصانة:

ـ غرفتي صبياً ورجلاً.

فسألته بصوت متهدج:

ـ ولماذا لم تنبهني؟

ـ ألا تبالغين في ردة فعلك هذه قليلاً؟

توهجت وجنتاها، وصاحت بدهشة وقنوط وهي تدفعه في صدره بقبضتيها.

ـ يا لهذا الكابوس!

وتأوهت وهي تسند ذقنها على قبضتيها، وبينما هاتان القبضتان كانتا لا تزالان على صدره، عانقها بقوة.

فشهقت هولي وحرارة المشاعر تندفع في جسدها. مالت إلى الخلف مترنحة، تكافح قيوداً وهمية ولكن ليس قبل أن تدرك أن ما تشعر به، يشعر به هو أيضاً.

أخذ نيال ينظر إلى وجهها المتوهج وقد بان الغموض على ملامحه.

نظرت إلى عينيه الزرقاوين الملتهبتين، وراحت تفكر. ربما لم يكن ما جرفها هو الذهول... بل الإنفعال... نعم، إنه حتماً الإنفعال، لو كان ممكناً أن تمتد عينان وأن تختطفا شخصاً، لكانتا عينا نيال... لقد شعرت بهما يختطفانها حقاً وحقيقة.

قاومت الرغبة في أن تضحك ساخرة.

ـ كان عليك أن تنبهني.

ـ هناك أمور ينبغي أن يعلم بها الإنسان مسبقاً، أما أنت فمن الأفضل ألاّ تعلمي إلا عند الضرورة.

فسألته بحدة:

ـ وعلى أي أساس استندت لتدلي بتعليقك السخيف هذا؟

فقال بصراحة:

ـ على أساس أنك كنت ستسببين لي وجعاً في الأذن.

وأزاح الستائر الموشاة بلون الذهب من حول السرير. وأخرج من حقيبته لفافة ورق مبهرج الألوان.

ـ أتظنين أن بإمكانك العودة بمفردك؟

أومأت كاذبة. لم يكن التكيف مع الظروف ميزة من ميزاتها. لكن ذلك لا يقلقها بقدر ما تقلقها مشاركته الغرفة.

ـ أريد أن أمضي بعض الوقت مع توم.

قال هذا وسار نحو الباب، ثم التفت إليها ويده على المقبض:

ـ إنها لا تعرض على أي أحد أن تصحبه في جولة بين الأملاك.

بعد أن تركها لعزلتها الكئيبة، افترضت أنه كان يتكلم عن أمه. ولم تستطع إلا أن تتمنى لو أنها لم تحظ بهذا الامتياز.

* * *

ـ ستعرفين الجميع هناك هذا المساء ما عدا بان وبستر مدير المزرعة.

قال ذلك وهو يعقد ربطة عنقه، أمام المرآة.

حملقت هولي في جانب وجهه الرائع، ثم شعرت باستيائها يزداد. لقد جعل الأمر يبدو سهلاً للغاية! أحكمت ربط حزام «العباءة» وهي تقول معارضة باستياء:

ـ لن أتعرف إلى أحد الليلة. فأنا غريبة هنا، وهذا يعني بالمناسبة، أنني أريد أن أكون.. بعيدة جداً من هنا.

أظهرت تماماً أثناء الجولة أنها غير مناسبة لتكون عروساً لوارث هذه الأملاك. فهي لا تحسن ركوب الخيل، لا الرماية. ولا تعرف بالضبط ما الذي جعلها تؤكد لمضيفتها أنها لا تنوي تعلم أي من هذه الأشياء، وهكذا، عندما يعود والداه من رحلتهما إلى أميركا، ويكتشفان أن ابنهما عاد عازباً وحيداً، لا شك أنهما سيتنفسان الصعداء.

ـ حاولي أن تنظري إلى الأمر نظرة فلسفية.

قال هذا وهو يلتفت إليها، ورأى الثوب الذي وضعته على السرير لترتديه.

ـ هذا الثوب مجدداً...

وتلاعبت على زاويتي فمه ابتسامة من يستعيد الذكرى. فقالت بحدة:

ـ ليس لديّ خيار.

كان يمكنها أن تضيف قائلة إنها ليست مثل أختها وزوجته السابقة، لكنها لم تفعل. فقد يجعلها هذا تبدو حقوداً أو غيوراً.

ـ نحن في العادة، لا نرتدي ثياباً رسمية لأجل العشاء، لكنهم لا يستقبلون كل يوم عضواً جديداً في الأسرة.

ـ أنا لن أكون عضواً جديداً في الأسرة.

ـ أمن الضروري أن تكوني متحذلقة بهذا الشكل؟

ورفع يده:

ـ لا. لا تجيبي. إذ يبدو أنك لا تستطيعين منع نفسك.

ـ في الواقع، لقد أوحى إليّ أبوك، أن وجود الضيوف لديكم ليس أمراً جديداً.

وتساءلت في داخلها كم من المرات جاءت روينا إلى هنا.

ـ أنت لاحظت ما قاله أبي. أليس كذلك؟

سألها متنهداً فنظرت إلى السرير متسائلة باشمئزاز:

ـ لاحظت أن الإستياء بدا على أختك.

ـ نعم، كانت مستاءة، رغم أن أبي لم يكن يعنيها بقوله ذاك.

لا.. كان يعني فقط ابنه زير النساء. وتصلبت ملامح هولي لتذكّرها سمعة نيال. لم يجعلها هذا تشعر بازدياد ميلها إليه، وقال هو ببطء:

ـ الأمر أن دانيال ليس ابن كريس. لقد تزوجت «جود» شاباً تبين لها فيما بعد أنه متزوج. كان الصفيق الوجه ذاك يأتي إلى هنا، رغم أنه كان يكبر جود بسنوات...

كانت ملامحه متحجرة وهو يتذكر تلك الحوادث التي أثّرت على حياة أخته.

ـ لم تعرف جود بالأمر إلا بعد فوات الأوان. حتى في ذلك الحين بقي يكذب عليها، قائلاً إنه سيطلّق زوجته. لكنه لم يكن من الذين يحفظون العهود، هل فهمت؟

وفهمت هولي، وامتلأت عيناها عطفاً وهي تتمتم:

ـ مسكينة جود.

ـ ضيّعت ثلاث سنوات من عمرها مع ذلك الوغد، ولم يستطع أيّ منا

أن يمنعها.

وبدت المرارة على وجهه المتصلب.

ـ وكان عليها أن تختبر صعوبة الطريق بنفسها... لكنها تعرفت إلى كريس.

فتبدد من ملامحه بعض العبوس وابتسم قائلاً:

ـ نعم. تعرفت إلى كريس.

فقالت بحذر:

ـ يبدو أنه رجل طيب.

ـ إنه من الرجال الطيبين حقاً.

وغير الموضوع فجأة ومد يده يتلمس الثوب، ثم يقول متأملاً:

ـ قماش جيد النوعية أهم من الكمية.

رأت ومضة ارتباك غريبة على ملامحه وهو يترك القماش فجأة ويتجه نحو النافذة. وقالت بلهجة لاذعة:

ـ أرى أن روينا جعلتك تعتنق طريقتها في التفكير. الثوب الكلاسيكي يستحق أن يتلهف الشخص إليه. إنه هدية في الحقيقة.

ونظرت إلى الثوب ولم تشأ أن تقول إنه ليس التصميم الأصلي.

تدير والدة مارتن مشغلاً صغيراً للخياطة يختص بانتاج نسخ عن التصميمات الأصلية لملابس المشهورين. ويبدو أن كثيرين مستعدون للدفع لقاء ملابس جميلة بأسعار معقولة.

ـ ذوق روينا ممتاز.

كان لا بد من أن تلحظ هولي، بموجة من الغضب، مسارعته إلى الدفاع عن أختها ضد أي نقد. وتوترت شفتاها.

ـ هذا الثوب ليس منها.

شعرت فجأة بأنها لا تريد أن يفترض الآخرون أنها تأخذ من أختها هدايا ثمينة. لماذا لا ينبغي لها أن تتخذ عشيقاً ثرياً شغوفاً يتوق إلى أن يقدم إليها ما تريده؟ وأخذت تدعك السجادة بأصابع قدمها الحافية. وتحول نيال

ليواجهها، منتقداً:

ـ هل هو هدية... من صديق مميز؟

ـ لقد قدمت له خدمة.

قالت هذا دون أن تهتم بما قد يفهمه نيال من تفسيرها الغامض هذا. ولكن إلى أي حد وصل في تفكيره ليبدو مستنكراً متوتر الشفتين بهذا الشكل؟ وما شأنه هو إذا هي سمحت لرجل بأن يغدق عليها المجوهرات؟ وتحولت عيناها إلى حبة الياقوت الكبيرة الزرقاء في اصبعها.

كانت هذه اللفتة من مارتن حلوة، وكانت بمثابة شكر على مساعدتها له في تنقيح مراجعاته في علم الصيدلة.

ـ من الواضح أنه لا يشكو مرضاً.

ـ اسمه مارتن.

ولم تره منذ تخرجا معاً في الجامعة.

ينبغي حقاً عليها أن تحاول الاتصال به. وازداد تقطيبها. سأل نيال بلهجة ساخرة متعالية:

ـ وماذا كان رأي مارتن في قدومك معي إلى هنا؟

لقد زاد الأمر عن حده الآن. قد يكون في الإدعاء بأن لديها عاشقاً، ما يحفظ ماء وجهها، لكنها لا تملك من الوقاحة ما يجعلها تستمر في ذلك طويلاً.

ـ لا أدري. لم أخبره في الحقيقة، ونحن لا نقيم علاقة من ذلك النوع.

ـ فهمت.

لكن كلماته التالية أوضحت جيداً أنه لم يفهم على الاطلاق.

ـ من سوء حظ مارتن، إذن، إذا لم يكن مثلك يأخذ الأمور ببساطة.

ـ لماذا تصبح بي؟

سألته هذا عابسة، فقال:

ـ أنا لا أصبح.

فقالت تتهمه بحرارة:

ـ لا، أنا واثقة من أنك أكثر تهذيباً.

ـ هل كانت تلك بيجامته؟

ـ من. . . . ماذا؟

لم يعد لديها أدنى فكرة عما يتحدث عنه.

لم يعرف نيال ما الذي جعله يسألها شيئاً كهذا. . . الأمر أن تلك البيجاما المخططة التي كانت تغمر جسدها النحيل لم تفارق تفكيره. وقطب حاجبيه. لم يكن من عادته التسلية بتفاهات لا علاقة له بها. وقال بخشونة:

ـ تلك التي كنت تلبسينها ذلك الصباح.

ما أحسن هذا! إنه يتذكر ماذا كانت تلبس عندما كان مظهرها يثير السخرية. . ولكن. . . لكنه أيضاً تذكر الثوب رغم أن مظهرها فيه لم يكن يثير السخرية. . .

ـ لا، لم تكن تلك بيجاما مارتن. إذا كنت تريد أن تعرف. أنا مشغولة في العمل بحيث لا يمكنني التواعد مع أحد.

ـ مجرد مجموعة من المعارف السطحيين إذن؟

ذلك الإلتواء الخفيف في شفته جعلها تشعر بالغضب البالغ. إنه يدينها لأنها امرأة. . . لو كانت رجلاً لربّتَ على ظهرها معجباً. . . كما أخذت تفكر غاضبة. وما يدعو إلى السخرية، طبعاً، أن ليس لديها علاقات لتتحدث عنها، فكيف بالتهكم عليها؟ إنها مخيلته القذرة فقط التي تفترض القذارة في صفحة حياتها الناصعة البياض.

ـ أسهل كثيراً أن تفترقا إذا كنتما تعقدان صداقة عابرة من أن تكونا زوجين.

قالت ذلك بتوتر ولم يكن نيال في وضع يسمح له بإعطائها نصائح بالنسبة إلى العلاقات.

ـ وإذاً أنت وروينا متشابهتين بالنسبة لهذا الأمر على الأقل. لكن روينا لم تخف نيتها بعدم الزواج.

ـ لا. لا أستطيع أن أدعي بأنني أشبه أختي حتى في هذا الأمر. ليس

لدي شيء ضد الزواج. كل ما في الأمر أنني لا أظن أنه ينبغي التقليل من أهميته كما يفعل بعض الناس.

وتلعثمت. كان نيال يبدو أكثر شروداً و. . . نعم، خطراً، مع كل حرف انطلق من بين شفتيها. وأضافت بصوت خافت متمرد:

ـ عندما أتزوج، أريد أن يكون زواجي أبدياً.

ـ هذا طموح شريف.

فقالت دون عطف:

ـ اعفني من واقعيتك الساخرة هذه. . . ولا أريد أن أتزوج قبل مضي وقت طويل. فأنا ما زلت صغيرة السن، ولدي الكثير لأفعله.

ـ أنت أكبر مما كنته أنا عندما تزوجت تارا.

رفعت هولي كتفيها، ولم تستطع إلاّ أن تلاحظ فكّه الذي تصلّب عند تطرّقها إلى هذه النقطة. فقالت:

ـ وهذا يثبت صحة نظريتي، أليس كذلك؟

ـ وماذا سيحدث لنظريتك العظيمة إذا غرقت في حب شخص ما وأراد هو الزواج منك؟

وكان صوته الآن قد أصبح أجش خفيضاً جعل قشعريرة تسري في جسدها. خصامها مع نيال يجعلها دوماً قلقة.

ـ إذا كان يحبني حقاً، سينتظرني.

ونضح جسدها عرقاً وهي تحاول تحويل عينيها عن نظراته المغناطيسية.

ـ ربما لا يحبك. . . ربما يرغب بك فقط، وأنت التي تحبينه. ستكونين تحت سيطرته كلياً، وستحبين ذلك.

لجزء من الثانية تملكها الذعر. ظنت أنه، في الواقع، يتهمها. وفي الوقت نفسه كانت تعلم أن الإتهام قد يكون صحيحاً! فالرجل الذي تحبه لن يلحّ عليها قط في أن تتزوجه. فقالت بشجاعة:

ـ لن أكون غبية إلى هذا الحد.

ـ ألم يحدث قط أنك أردت أن تسرّي شخصاً إلى حدّ لا يمكنك معه أن

تفكري في شيء آخر؟

هزها صوته الأبح أكثر من أي شيء قاله. وكان في نظراته تهكم أخافها. وتابع يقول:

ـ أنت تتكلمين وكأن لديك خياراً. الحب ليس هكذا.

بللت شفتيها الجافتين بطرف لسانها وأخذت تتفحص وجهه الوسيم القاسي العنيد بنوع من الشغف العاجز. لم يكن حبها لهذا الرجل باختيارها... لأن حب نيال كارثة! يا إلهي... لم تكن تريده أن يخبرها ما هو الحب بالنسبة إليه... فهذا كان أكثر مما تقوى على الاحتمال.

ـ ألا تعرفين هذا، يا هولي؟

توقفت عن ذلك اللهاث المضطرب الذي جعل صدرها يعلو ويهبط بشكل مثير، ثم تنفست بعمق.

ـ أنت تتحدث عن الرغبة وليس عن الحب!.

قالت هذا وهي تهتز بجموح ووهن.

ـ الحب هو احترام متبادل.

ـ هذا صحيح، لكنه أيضاً مشاعر حميمة.

تملك هولي القلق من أن تنهار ركبتاها. وسألته:

ـ هل كنت تحب نارا عندما تزوجتها؟

وكان الخوف واضحاً في سؤالها.

طرف نيال بعينيه وهبّ واقفاً. لم تظن في البداية أنه سيجيبها على هذا السؤال، فقد ألقته لكي تصرف ذهنه، ليس أكثر... لقد كانت تعلم الجواب مسبقاً.

ـ كنت غارقاً في الحب بشكل أعمى.

قال هذا بخشونة مشدّداً على كلمة (أعمى). يمكنه الآن أن ينظر إلى الخلف حيث ذكريات شبابه ومثالياته الرومانسية فيرى عدة دلائل تحذيرية كان ينبغي أن تجعله يتراجع.

والآن؟ أرادت أن تسأله لكنها لم تفعل. إنها تعلم هذا الجواب أيضاً، كما تظن.

جمعت هولي ملابسها، ثم سارت نحو الحمام متمتمة:

ـ لن أتأخر.

***

www.elromancia.com

٦ ـ الساحرة الصغيرة

سرعان ما أدركت هولي أن كلمة (لباقة) لا علاقة لها بالسير جورج ويسلي.

ـ أخت روينا، أه؟ روينا فتاة جميلة.

ولمعت عيناه وهو يذكر أخت هولي.

ـ جميلة إلى حد غير عادي. أنت لا تشبهينها أبداً.

ونظر حوله وكأنه يتوقع من الموجودين أن يدعموا رأيه.

تعالت أحاديث غير مترابطة، في الوقت نفسه لتغطية الصمت المربك السائد. لم تكن هذه المرة الأولى التي تسمع هولي فيها مقارنات غير مقبولة، ولم تكن كلها بنيّة سليمة كما هي تعليقات مضيفها.

نقلت نظراتها من جورج ويسلي الذي كان الانزعاج والارتباك باديين على وجهه، إلى الآخرين الذين تظاهروا بالصمم. وهبت روح النكتة إلى انقاذها، فانفجرت ضاحكة. وعلى الفور تبدّد ذلك الجوّ المربك.

وقالت جود ضاحكة وهي تمسح عينيها بمنديل ورقي.

ـ ستكون بحاجة إلى روح النكتة معك يا نيال.

لم يشارك نيال في الضحك، لكنه كان يبتسم بشكل باهت وهو ينظر إلى المرأة التي تلبس خاتمه في اصبعها. شعرت هولي بعينيه فالتفتت. وكان في تلك الابتسامة الغامضة ما جعل دقات قلبها تتسارع بشكل مؤلم. وأخذت تعبث بتوتر بالفوطة التي في حجرها.

ـ ولماذا يجرحها كلامي؟

سأل السير جورج ويسلي بارتباك مجيباً على تذمر زوجته الخافت.

ـ إنها فتاة صغيرة رائعة الشكل حقاً، لكن شقيقتها مذهلة.

ـ نعم، إنها مذهلة الجمال، أليس كذلك؟

وافقته هولي بهدوء، شاعرة بالشفقة عليه.

ـ أرأيتم؟

ونظر حول المائدة وقد بان الضيق على وجهه.

ـ كما أن «ميف» أخبرتني أنك طبيبة.

ـ نعم. وقد تخرجت حديثاً.

ـ الطب يكسبك كثيراً من المال.

فقالت بأسف:

ـ ليس في المجال الذي أحبه.

ـ وما هو ذلك المجال؟

وبانت على ملامحه صدمة خفيفة لقلة جشعها إلى المال.

ـ الطب العام. وليس لهذا المجال بريق الاختصاصات.

ـ جراحة التجميل. هذا ما أنت بحاجة إليه. كم كان عمر ابنة إميلي عندما أجريت لها عملية تجميل في صدرها؟ تسعة عشر؟ حسناً، اسألي «كين» إذا كنت لا تصدقينني. إنه صديق لنيال دخل هذا المجال يا عزيزتي، فذاعت شهرته. وهو يكسب كثيراً منه. يجب أن تتحدثي إليه وهو سيوضح لك كل شيء.

فقالت:

ـ «كين تايلر»... نعم. أنا أعرفه.

رأى نيال الابتسامة الصغيرة التي لاحت على شفتيها فتملكه استياء غامض فسألها:

ـ وكيف تعرفت إليه؟

فقالت ميف متجاهلة تدخّل ابنها:

- إنه محتال ساحر، وهو يعجبني.

فقال نيال باشمئزاز:

- ساحر؟ هذه كلمة مهذبة تصفينه بها.

التفتت هولي إليه غير مصدقة. فهي واثقة من أن نيال ترك خلفه قلوباً محطمة بقدر ما تركه كين.

- ويعجبني أنا أيضاً.

قالت هولي هذا لمضيفتها قبل أن تعود بانتباهها إلى نيال. كانت لا تزال حائرة لتصرفه الغريب... ربما تشاجر مع كين ذات مرة، فكلاهما على علاقة حميمة مع روينا. أتراهما يتنافسان على كسب عطفها؟

- لا أظنك في وضع يسمح لك بأن تلقي أول حجر عليه، يا نيال.. ولا حتى آخر حجر.

فضحك أبوه:

- نعم. أخبريه بذلك.

نظر نيال إلى أبيه بازدراء، ثم عاد يقول لها:

- لم تخبرينا بعد كيف تعرفت إلى كين.

- أنا لم أخبر أحداً لأن «أحداً» لم يشأ أن يعرف ذلك بشكل خاص.

لماذا يتصرف بهذا الإلحاح ويجعلها تراوغ عمداً؟

- عرفت كين بالطريقة نفسها التي عرفتك فيها.

من المميزات الإضافية لكونها شقيقة روينا الصغرى، أنها تعرفت إلى رجال رائعين ما كانت لتصادفهم قط في حياتها. وفكرت عابسة، في أن الحياة كانت لتكون أسهل بكثير لو أنها لم تصادف في حياتها نيال بالذات.

- لم أفهم.

ردّه هذا المثقل بالمعاني، ذكّر هولي بأن عليها أن تنتبه إلى كلامها.

- روينا أخبرت كين بأنني أريد الإلتحاق بالمعهد الطبي، فساعدني كثيراً، وبقي على اتصال بي.

- لم تحدثيني عن هذا من قبل.

أجفلت هولي للهجته تلك، ونسيت مرة أخرى الدور الذي تمثله. فسألته بحيرة صادقة:

- وما الذي يجعلني أفعل ذلك؟

فتدخلت «جود» قائلة:

- نعم يا نيال. لماذا قد تفعل ذلك؟

وكانت الإبتسامة العريضة التي تبادلتها مع زوجها تفيض هزلاً.

- الأيام تعلمنا.

ومالت نحو أخيها.

- لم أعرف أنك من النوع الذي يغار.

وأصغى الجالسون قريباً منهما لتعليقها والجواب عليه، بدون اكتراث.

ولم تكن ملامح نيال تفيض بحب الأخوّة وهو يتجاهل تعنيف أخته الرقيق.

اكتسحت هولي موجة من الخزي، وأخذت تعنف نفسها لبطء فهمها. لقد كان يمثل دور العاشق المتملك الذي يغار! وظنت، للحظة واحدة، أنه ربما حقاً... كفى! لا مجال لأحلام اليقظة، كما أخذت تذكر نفسها.

- إنه ليس غيوراً.

اعترضت هولي بذلك بصوت حازم. وسرّها أن ترى لمحة اهتمام على وجه نيال.

وسكتت لحظة لتدعه يتساءل عما إذا كان ضغط عليها أكثر مما يجب، ثم تابعت تقول:

- إنه فقط يقصد إخافتي.

فقالت تارا بصوت واضح للجميع:

- حسناً، في الواقع يا هولي، أظنك تستمتعين بإخافته أنت أيضاً.

قالت هذا بتحذير واضح، لكنّ ابتسامتها الحلوة حالت دون انزعاج أحد.

رفع نيال كأسه لزوجته السابقة لكن عينيه تسمرتا على هولي وهو يجامل

تارا:

ـ نخب فراستك وإدراكك العميق. والآن، لأنني أعرف أنك لا تحبين الشجار، لن نتشاجر. أليس كذلك يا حبيبتي؟

بادلته هولي النظر وقد جف فمها وانقبض قلبها، وثار غضبها لأفكار هذا الوغد المغري. هل يعلم ماذا تفعل بها نظراته هذه؟

وألقت برأسها إلى الخلف.

ـ هذا يتوقف على مدى تعقلك.

إنه طبعاً يعلم! إن نيال ويسلي صلب حذر لا يترك شيئاً للمصادفة، وطريقته تلك في القاء سؤاله... هل يريدني... يريدني حقاً؟ وهل يمكنني رفض ما يقدمه إليّ؟ ثم الأهم، هل يمكنني أن أرفض؟ وهل أريد حقاً أن أرفض؟

امتنع نيال عن اظهار المزيد من غيرة العشاق خلال السهرة. وأخذت تفكر بمرارة أنه وزع الأدوار طبقاً لقناعته، وقناعة الآخرين. لم تواجه أي تشكك كانت تتوقعه. لقد تملكتها الحيرة حقاً لقبولهم الجاهز لها وللدور الذي تمثله.

***

فك نيال ربطة عنقه وقذفها دون اهتمام إلى كرسي فوقعت على الأرض.

أقنعت هولي نفسها بأن تتمسك بالهدوء والحزم وألاّ تفقد حس النكتة لديها.. فهو ليس غبياً، وسيتكهن على الفور أنها تعاني لتكبح عواطفها أمامه. وأتت اللحظة الحاسمة.

سألها: «أين ستنامين؟».

فأشارت إلى الأريكة قائلة:

ـ سأكون مرتاحة هنا.

فتقدم هو نحو الأريكة يختبرها بيده:

ـ لا أظن ذلك. عندما أصلحوها، كانوا يبتغون منها الصلابة والقوة وليس الراحة.

ـ لا يهمني...

فقال متثائباً:

ـ ألا تظنين أن الصبر على المكاره فضيلة مبالغ فيها؟

أجابت متجاهلة سخريته:

ـ كيف حال توم؟

فردَّ بشيء من التعقل:

ـ إنه نائم. وقد تمرّ أيام لا أراه فيها إلا نائماً.

وشعرت هولي بتعنيف وعدم رضا في صوته.

ونظرت إليه بقلق وهو يجلس على الأريكة ويلقي على الأرض بالوسادة التي كانت أحضرتها من السرير.

التقطت الوسادة وضمتها إلى صدرها. وأزعجها إلى حد كبير أن تشعر بهذا الفيض الفوري من العطف أمامه. سارت، وما زالت تحتضن الوسادة، ثم انهارت على ركبتيها على السجادة بجانب الأريكة.

ـ آباء كثيرون من أصحاب الأعمال يعانون صعوبة مماثلة.

ثم سارعت تقول لمعرفتها بموقف نيال الدفاعي عن أم ولده:

ـ أنا واثقة من أن تارا أم عظيمة، لكنك تتحمل المسؤولية الرئيسية، وأظن أن تقوم به هو عين الصواب.

رفع نيال رأسه عن ظهر الأريكة ونظر إليها من بين أهدابه السوداء الكثيفة. أتراه يعجب لاقدامها على التخفيف عنه؟ أخذت تتساءل عن ذلك فهي أيضاً كانت تعجب للأمر نفسه!

ـ إنه صبي لطيف ومتزن.

وشعرت بارتباك سخيف، وتمنت لو أبقت فمها مقفلاً، وأطلقت ضحكة قصيرة متوترة.

ـ لا بد أنه ورث ذلك عن أمه.

قالت هذا مازحة. لماذا ينظر إليها بتلك الطريقة العنيفة الغريبة؟

ـ وعلى كل حال، لو بقيت تمارس سباق السيارات، لرأيته أقل بكثير.

فقال يفضي إليها بشكل أدهشها:

ـ الخوف من أن لا أراه على الإطلاق، هو ما جعلني أعتزل السباق.

ـ آه، هل هذا هو السبب...

أسكتها عندما رفع حاجبه معنفاً. واحمرّ وجهها ارتباكاً لجوابها المتسرع. فقالت بشيء من التمرّد:

ـ هكذا إذن... لقد تملكني العجب، فأنت لم تقدّم حينذاك أي إيضاح.

لا... الأمر ليس بهذه السهولة بالنسبة إلى نيال ويسلي. لقد افترت عليه الصحف كثيراً، فلم يخطر لهذا الرجل الواثق من نفسه أن يشرح بساطة موقفه. ربما أخبر أصدقاءه الحميمين... مثل روينا. وشعرت بطعنة نجلاء لأنها لم تكن ضمن هذه النخبة ولن تكون أبداً.

ـ كنت أحب السباق، لكنه لم يكن حياتي... حسناً، لا.. ليس هذا صحيحاً بالضبط. ربما كان حياتي كلها قبل أن يولد توم. عند ذلك أردت أن أراه ينمو. لكن قبلاً لم أكن أستمع إلى أحد، ولا حتى إلى تارا المسكينة، التي كانت تتوسل إليّ أن أعتزل السباق.

ـ هل كانت تريدك أن تعتزل..؟

هذه شائعة أخرى بانت على حقيقتها. فقد أصرت الصحف على أن زوجته تركته لأنه هجر عالم البطولة الوهاج.

ـ كانت تكره أن أزاول السباق.

ـ أنا لا ألومها.

خرجت كلماتها باخلاص وبحة بدت وكأنها تتجاوب في أنحاء الغرفة.

ـ ولا شك أن الرغبة في البقاء حياً حرمتك الإثارة والإنفعال في حلبة المنافسة.

كانت ترجو أن تسهم سخريتها هذه في الحد من اندماجها معه.

ـ ربما أنت على حق.

ثم استدرك وقال لها:

ـ لقد خرجنا عن الموضوع، يا هولي.

ـ وماذا كان ذلك الموضوع؟

سألته، وإذا بها تنسى كل شيء في العالم عندما انحنى يزيح الوسادة عنها.

ـ ترتيبات النوم.

ـ لقد انتهى الموضوع.

وعندما واجهت عينيه، ارتجف فمها المتزمت بشكل خفيف. وكان وراء ذلك الهزل السطحي حلقها جافاً، وركبتاها واهنتين ترتجفان.

ـ هل أنت على علاقة بكين تايلر؟ وهل لهذا السبب تبعدينني عنك؟

جاءها هذا السؤال فجأة فلم تستطع سوى الحملقة فيه.

ـ كين؟

ـ لأنه إذا كان الأمر كذلك، عليّ أن أخبرك بأن وفاءك في غير موضعه. صدقيني فأنا أعرف كين.

وكان في عينيه لمعان ساخر. وشهقت قائلة:

ـ مع صديق مثلك، لا يحتاج المرء للبحث عن أعداء.. أليس كذلك؟ هل فعل ما أغاظك؟

فقال ناظراً إليها بعينين ضيقتين:

ـ لم تجيبي عن سؤالي...

فقالت تستفزه بابتسامة عذبة ساخرة:

ـ لاحظت هذا. أليس كذلك؟ ألم تفكر في أن هذا ليس من شأنك؟

ثم أردفت قائلة:

ـ أنا أعرف أنني بديلة لروينا، لكنني لست مستعدة لأكون كذلك في كل شيء.

قالت هذا بجفاء، وهي تشعر بمرارة لاذعة في حلقها.

وبدا على نيال أن بإمكانه مواجهة الجفاء بجواب رقيق:

ـ عندما كنا في السيارة، بدا لي أن تلك كانت غايتك بالضبط.

وأخذ ينظر إلى وجهها وهو يشحب بشكل بالغ.

شعرت هولي بالدوار عندما ارتدّت إلى ذهنها هذه الذكرى الصغيرة. وردّت ساخرة بجفاء:

- أراك تنتظر الوقت المناسب لكي تتذكر هذا الأمر.

- أنا مسرور لتقديرك مدى التحفظ الذي بدا مني حتى الآن.

صرفت بأسنانها لتهثنته نفسه، وقالت:

- يا لك من سيد مهذب حساس.

هز رأسه ببطء، وقبض على معصميها النحيلين بحزم وجذبها، فركعت على ركبتيها من جديد.

- المديح لا ينفعك بشيء، يا حبيبتي.

همس بهذا في أذنها وهو يرفع يديها بقوة ويضعهما حول عنقه.

- كنت أريد القيام بهذا...

شهقت هولي ويده تطبق عليها. وصدرت عنه همهمة سرور عميقة، وعيناه تتنقلان بنهم فوق وجهها المتوهج وصدرها الذي كان يعلو وينخفض. وأخذت دقات قلبها تتسارع ومشاعرها الجيّاشة تتدفق حارة حلوة.

وقال متمتماً:

- ... منذ رأيتك أيتها الساحرة الصغيرة الحلوة..

دس أصابعه في الهالة النيرانية من الخصلات التي تغطي رأسها وأخذ يتفرّس في وجهها الحالم المثير بعينين جائعتين. ثم قال بلهجة قاطعة:

- لن تنامي على هذه الأريكة.

أثارت ثقته المتغطرسة بقايا العناد في نفسها.

- من يقول هذا؟

لكن انقضاضه عليها معانقاً دمّر ما بقي لها من عقل.

حملها بين ذراعيها وسار بها خطوات قليلة، ولكنها فوجئت به يتعثر بفردة حذائها الذي رمته عند دخولها الغرفة.

- آسف. هل أنت بخير؟

سألها بقلق وهي تزيح شعرها النحاسي الكثيف عن عينيها.

- بـ... بخير.

والتفت إليها متهماً.

فأجابت هولي ساخطة:

- ليس ذنبي إن لم تكن تنظر إلى موقع قدميك.

نظر إليها، فرأت في ملامحه الكثير من الاعجاب. وشعرت أن وراء نظراته هذه أشياء لم يستطع قولها. وإن كان ليس من الصعب عليها، أن تتبينها بوضوح تام.

كان وجهها المشاكس متوهجاً وكانت تتنفس بصعوبة وسرعة عندما أنهى تأملاته فيها.

- أنت لم تدعيني أتنفس، فكيف بالنظر إلى موقع قدمي؟

- أتريد أن تقول إن عناقي لم يعجبك.

- وهل تريدني أحمق؟

لاحظ ردة فعلها وهز رأسه.

- بل تعانقين كالملائكة.

قالت تخبره وعيناها تتفحصان وجهه.

- عندما كنت في السادسة عشرة، كنت أظن نفسي مغرمة بك.

- اعلم هذا.

- كنت أعلم أنك تعلم.

تمتمت بذلك بصوت شارد. وقالت بصراحة:

- كان ذلك مذلاً للغاية. وطبعاً تغلبت على تلك المشاعر منذ سنوات.

لم يكن الوقت مناسباً لكي تكشف عن الصدمة المفجعة التي تعرضت لها... وقد لا يحصل وقت مناسب أبداً لأجل هذا.

- هل تشعرين بتحسن الآن بعد أن أثبتّ بحزم أنك غير مغرمة بي؟

أدركت هولي أن لتلك النبرة في صوته دلالة ما. ولكن هذا الادراك تبدد

من ذهنها حالما أخذت أنامله تتحرك على قسمات وجهها. فراحت مشاعرها تتأجج باضطراد.

أجابته وهي تتصنع الصدق.

ـ لا. كان مجرد شعور عابر بسيط.

وضع ذراعه خلف ظهرها وجذبها إليه، ليصبح وجهها موازياً لوجهه.

ـ صراحتك، يا صغيرة، يمكنها أن تجرح أقل الرجال شأناً.

لفت ذراعيها حول عنقه والتصقت به ونسيت في غمرة ابتهاجها، كل ما قالته من قبل. بينما كان هو، يحدق فيها مأخوذاً بالسحر الكامن فيها، حدثته نفسه بأنها من الممكن أن تكون ساحرة بالفعل. لكنها كانت تؤكد له بصمت مطلق أنها امرأة مثقلة بكل لواعج العواطف.

ـ أتعلمين أنك ساحرة صغيرة تسلب القلوب.

وحينما كانت تتهاوى بين يديه، شعرت للمرة الأولى، بأنها وجدت نفسها بالفعل. لكن هذا لا يعني أنها تريد الاستسلام له وعليه هو أن يحترم رغبتها.

ـ اسمع لن تغريني كلماتك للاستسلام. لقد اخترت هذه الأريكة لي وسيكون ذلك.

وقف ضاحكاً:

ـ لك ما تريدين ولكنك قريباً ستغيّرين رأيك يا ساحرتي الصغيرة.

توقف عن لمسها... توقف عن الكلام، ولولا سماعها أنفاسه البطيئة المتثاقلة، لظنت أنه توقف حتى عن التنفس.

ـ أنت غير معقول!

***

٧ ـ المنقذة

ـ لا يمكن أن يكونا قد ابتعدا كثيراً، يا جود.

قال كريس أبليبي هذا مطمئناً زوجته وهادفاً إلى إشاعة جو من المرح والثقة.

ـ لا بد أنهما تعبا من انتظار نيال لينزل ويتناول فطوره.

كان وجهها شاحباً من القلق، وكلماتها موجهة إلى أخيها، لكنها كانت تقصد هولي.

منذ اللحظة التي دخلت فيها هولي الغرفة، والسعادة تبدو عليها. فهي لم تكن تعلم حتى تلك اللحظة أن توم وابن عمته قد اختفيا منذ ساعتين. كانت جود تلوم هولي لأن أخاها لم يأتِ قبل الآن لاصطحاب الولدين في نزهة.

قال نيال بخشونة:

ـ دعي هذا الأمر وشأنه، يا جود.

لم تستطع هولي أن تجزم ما إذا كان في الواقع يدافع عنها من سخط أخته، أم أنه مجرد فروغ صبر منه. فقد كانت جود تصرف ذهنه عن المهمة التي بين يديه.

ـ في المرة الأخيرة كانا في الإصطبل. صح؟

ـ نعم. رأتهما أمك عندما عادت من تدريب الفرس «بلوبوي».

وربّت جورج ويسلي على كتف ابنه.

ـ الحق مع كريس. لا يمكن أن يكون العفريتان قد ابتعدا كثيراً، أظن

أن صغار هذه الأيام، مدللون أكثر من اللازم. إنهم بحاجة إلى شيء من الحرية. لقد كنتما صغيرين عنيفين أنت وأختك، أتتذكرين عندما شق نيال رأسه وهو يتسلق..؟

لم تشارك ميف زوجها نظرته الوردية إلى تلك المناسبة. إذ كل ما كانت تتذكره هو سهرها على ابنها في المستشفى فأومأت بحذر.

ـ لا أظن أنه الوقت المناسب للحديث عن آرائك الخلاّبة في تربية الأطفال، يا عزيزي.

ـ سنتوزع فرقاً للبحث. فإذا لم نجدهما خلال نصف ساعة، سنطلب معونة الشرطة. خذ أنت الإصطبل، يا كريس، وأنا سوف...

وقفت هولي بهدوء إلى جانب نيال عندما أخذ يقسّم الأسرة وموظفي المنزل إلى مجموعات للتفتيش. أما تارا التي كانت هادئة بشكل مدهش، فبقيت برفقة جود المضطربة. وبدا أن هولي هي الوحيدة التي لم تُكلف بشيء.

أمسكت بنيال وهو يهمّ بالخروج من الغرفة.

ـ ما الذي يمكنني فعله؟ هل يمكنني القدوم معك.

كان طلب هولي يحمل الكثير من الاستعطاف، لكنها ذهلت لأنه لم يلاق تجاوباً في عيني نيال. كان واضحاً أنه شارد التفكير. آلمها الرفض لكنها لم تمتعض من انشغال باله، فقد تفهمت ذلك، إن ولده قد اختفى فلا بد أن يقلق قليلاً. تمنّت لو تتمكن من تخفيف قلقه، لكنه لم يلتفت إليها.

ـ أنت لا تعرفين المنطقة، يا هولي، وربما من الأفضل أن تبقي هنا.

لماذا استاءت لمعاملتها كالغريبة؟ إنها حقاً غريبة.

لم يكن حضورها يخفف عن جود. لكن هولي لم تلم المرأة، فقد كان من الطبيعي أن تحتاج إلى من تلقي عليه باللوم. وتمنت فقط أن يتم العثور على الولدين سالمين معافيين.

لم يذكر أحد منهم مقلع الحجارة المهجور خلف الغابة، مع أنه لا يبعد كثيراً عن المنزل، وحدائقه. وفي الواقع، تجنب الجميع ذكره، لكنها أدركت

أنهم كانوا منتبهين إليه.

كانت قد سمعت «يان وبستر» ونيال يتحدثان عن الرجل الذي غرق الصيف الماضي في حفرة مليئة بالمياه هناك، فتجمّد الدم في عروق هولي وهي تفكر في أن الولدين قد يكونان هناك بمفردهما.

بعد عشر دقائق أدركت أنها ضلت طريقها. والأفضل أن تلتمس طريق العودة. رباه، هل هذا ما يحتاجونه الآن؟ أن تضلّ ضيفة في المنزل طريقها إلى غرفتها!.

جلست هولي على درجة أمام الباب وتلفتت محاولة التعرف على اتجاهها الصحيح. نظرت من أول الممر إلى آخره، لكنها لم تر أي شيء مألوف. لم تستطع أن تبتسم وهي ترى صور الزعماء الكاريكاتورية، التي تعود إلى القرن الثامن عشر، والمعلقة على الحائط بجانبها. وعندما وقفت مترددة في ما عليها فعله، سمعت جلبة لم تستطع أن تنسبها إلى أصوات منزل قديم فقط. وجمدت مكانها وأرهفت أذنيها.

هل يعقل أن يكون الولدان في المنزل بينما الجميع يبحث عنهما في أنحاء المزرعة؟ حسناً، وماذا ستخسر؟ وانطلقت في اتجاه الأصوات.

قادتها الأصوات، إلى علية في الطابق الأعلى. وإذ رأت آثار أقدام قذرة، تنفست الصعداء. ونادت بقوة:

ـ هل هناك أحد؟

مضت لحظات لم تسمع فيها شيئاً.

وأخيراً كوفئت على جهودها عندما سمعت نداء استغاثة.

ومرة أخرى تلفتت جاهدة لتبيان مصدر الصوت. واندفعت تفتح باب العلية فوجدت هيكل منصة منصوباً في آخر الغرفة، وظهرت دعامات أثرية خشبية ثقيلة تسند السقف.

فتسمرّت عيناها المذعورتان على شخصين وكاد قلبها يتوقف عن الخفقان عندما رأت الصبيين في أعلى المنصة فوق الهيكل الذي لم يتم تشييده بعد.

كان توم جاثماً على ركبتيه وقد احمر وجهه بتأثير الجهد وهو يتشبث بقميص ابن عمته الذي يكبره سناً ووزناً، فيما كان هذا القميص معلقاً بنتوء في أعلى الهيكل، وهو الوحيد الذي حفظ الفتى من السقوط على الأرض.

وكاد يغمى على هولي عندما أدركت أن القميص قد ينخلع فينزلق الصبي ليرتطم بالأرض.

لم تكن هولي في وضع يؤهلها للتفكير. وسرعان ما وجدت نفسها تتسلّق الأخشاب، مطمئنةً على الطفلين.

- لابأس يا توم دع الأمر لي.

وأخذت تلهث وهي تتسلّق حافة المنصة.

- ارفعيه بسرعة. إنه لا يستطيع أن يتنفس.

قال توم هذا وهو يرفع قبضته بينما هولي تأخذ مكانه.

- لن أدع ذلك يحدث.

وانبطحت هولي على بطنها وقد بان الحزم على وجهها. حاولت ألاّ تنظر إلى أسفل فهي تخاف المرتفعات، ووضعت ذراعيها تحت إبطيه، وسرعان ما تحسن تنفس الصبي. واطمأنت عندما أخذ يبكي بصوت مرتفع.

أدركت على الفور أنها لن تتمكن من رفع الصبي إلى فوق حافة المنصة، وربما كان أثقل وزناً منها هي، كما أنها لم تعد تشعر بقوة في ذراعيها. لكنها استطاعت أن تخلّص القميص من ذلك النتوء، فتمكنت من حمله. ثم أخذت تتأمل بسرعة الخيارات القليلة التي أمامها. ومسح توم آثار الدموع عن وجهه وسألها:

- ماذا ستفعلين الآن؟

وبدا واثقاً من أنها تعرف الجواب.

وخطر لهولي أن ثقة الصبي هذه هي وحدها عبء ثقيل.

- دانيال سيتوقف عن الرفس، أليس كذلك يا حبيبي؟

رفسة أخرى كالتي سبقت وتنخلع ذراعاها..

- أما أنت يا توم فستذهب وتطلب النجدة، يمكنك أن تفعل هذا.

أليس كذلك يا توم؟

وسرعان ما كان الصبي ينزلق على هيكل المنصة بخفة القرد. فصرخت فيه:

- حذار.

- سأعود.

ناداها قبل أن تسمع الباب ينصفق خلفه.

- آه، أرجو ذلك.. أرجو ذلك حقاً.

وأخذت تدعو الله بصمت. وبصوت مرتجف، قال لها الصبي المعلق.

- أنا أكره المرتفعات.

كبحت دافعاً يستحثها على أن تسأله عما جعله إذاً، يتسلق هذا المكان المرتفع. كانت من الناحية المهنية، سعيدة بأن تسمع صوته وتدرك أنه لم يعد من أثر للاختناق، سوى بحة بسيطة.

- لماذا لا تغمض عينيك؟ أليست هذه مغامرة رائعة؟

قالت هذا بلهجة جعلتها تبدو مشجعة. وأدركت أن من يسمعها سوف يظن بأنها في حفلة ممتعة.

وعندها تحوّلت ابتسامتها العريضة المشجعة إلى تكشيرة ألم، فقد تحوّل الحريق في عضلات كتفيها إلى عذاب لا يحتمل.

وراحت تحاول التركيز والتحلي بالقوة:

- لا أستطيع أن أفلته.. لا أستطيع أن أفلته...

وفجأة وجدت المكان يعجّ بالناس والصيحات. هتف نيال قائلاً:

- أفلتيه، يا هولي. سيتلقاه كريس.

وسمعت نفسها تسأل نيال بغباء:

- وهل أستطيع أن أفلته؟ هل أنت واثق؟

- تماماً.

فعلت ذلك فتصاعد التصفيق عندما أصبح دانيال بين ذراعي أبيه. وضحكت هولي بحماقة وهي تفتح عينيها وتنظر إلى أسفل... غلطة...

غلطة هائلة! كانت الغرفة تدور بعنف. وجّدها مكانها رعب فظيع.

- انزلي يا هولي.

وكان هذا صوت توم يستحثها.

حاولت هولي أن تتكلم، فلم تخرج الكلمات من فمها وأخذت تبتلع ريقها لترطب حلقها الجاف ثم قالت بصوت مختنق:

- لا أستطيع.

- لماذا لا تستطيعين؟

ورغم أنها كانت مغمضة العينين، أدركت أنه نيال.

- أنا لا أحب المرتفعات، في الواقع.

اعترفت بذلك بضحكة عنيفة نوعاً ما.

- أنا أخاف منها.

وساد صمت مفاجيء. ثم قال كريس:

- لا تصعد يا نيال، إنك ثقيل الوزن، وقد تنهار معدات المنصة هذه في أي لحظة.

وعندما فكرت هولي في أنه كان بإمكانها أن تقع دون أن تدري بذلك، أطلقت نشيجاً خافتاً، لا سيّما أنها شعرت باهتزاز الهيكل المعدني وكأن شخصاً يصعد عليه. لم يكن من عادة نيال أن يصغي إلى أحد. وهذه المرة شعرت هولي بالسرور لذلك.

جعلتها اللمسة على كتفها تشعر بأنها ليست وحدها.

- سأنزلك إلى أسفل.

فقالت تحذره:

- من المحتمل أكثر أن أتسبب في سقوطنا معاً. ومن المحتمل أن أقوم بعمل أحمق.

فقال ببطء:

- وهل هذا أمر جديد؟

كانت مقتنعة بأنها لا تستطيع أن تتحرك. لكن نيال كان مقتنعاً أكثر بأن

باستطاعتها ذلك وعليها أن تتحرك. كان مقنعاً جداً، وصبوراً بشكل مدهش، لكنه حازم، فهو لم يهتم عندما قالت إنها لا تستطيع.

نزلت ببطء شديد، لكن قدميها استقرتا في النهاية على الأرض. رفعت رأسها إلى نيال فابتسم لها من دون أن يرتجف فمه الصلب. فجعلها ذاك الدفء في عينيه تفقد قدرتها على التنفس.

- شكراً.

كانت ركبتاها ترتجفان بشدة أرغمتها على التمسك به كي تثبّت نفسها.

- لقد أنقذت حياة ابني، ثم تقول لك (شكراً)؟

كان رأس هولي ما يزال يدور عندما احتضنتها جود وكادت تمنعها من التنفس. لقد تحولت هولي خلال ساعة من كبش فداء إلى منقذة..!.

كانت رحلة تسبب الدوار حقاً.

- بحق الله يا جود، دعي الفتاة تتنفس.

قال نيال هذا بخشونة وهو يفصل، بفروغ صبر، بين أخته وهولي التي كان وجهها بالغ الشحوب.

وابتسمت هولي له شاكرة بحرارة، وقالت:

- أنا أعلم أن هذا وهن، ولكن أظنني سوف...

وبعد ذلك بدقائق، سألت:

- أتراه أغمي عليّ؟

وأرغمتها يد حازمة على صدرها على الاستلقاء مجدداً.

- لقد سقطت كورقة خريفية.

كانت لا تزال غير واعية تماماً لما حصل.

- هل الولدان بخير؟

كانت في غرفة جلوس لم ترها من قبل. وكانت مريحة تقريباً بالنسبة إلى مستوى هذا البيت.

هز رأسه مطمئناً ما أشعرها بارتياح بالغ:

- وشكراً لك.

وكان صوته جافاً وهو يفكر، بصمت، في نتيجة عصيان الولدين.

- آمل أن يشعرا الآن بأن العقاب كان مناسباً.

- أرجو أنك لم تكن قاسياً جداً معهما.

لامس جبينها بأصابعه، وشعرت بها تمرّ على شعرها بخفة.

ولم يكن هذا الشعور غير سار... وفي الواقع....

- ما الذي تفعله؟

- خيوط عنكبوت.

ورفع أصابعه وأخذ ينفخ عنها الخيوط العالقة.

- إنها تغطي شعرك.

ونبهتها كلماته إلى قذارة جسدها الآن، فنظرت بقلق إلى الأريكة التي كانت تجلس عليها.

- هيا، هل لك أن تستلقي؟

وتوترت شفتاها دون وعي منها.

- عليك أن ترتاحي يا هولي.

قال هذا بجفاء وهو ينظر إلى وجهها وبشرتها بعينين ضيقتين.. صحيح أنها بيضاء البشرة، لكنها الآن، تبدو شاحبة جداً، وربما كان ذلك بسبب التعب والأرق الليلة الماضية.

وتسارعت أنفاسه وهو يتذكر الليلة الماضية. فاستيقظت فيه مشاعر جيّاشة وأظلمت عيناه وهو يتذكر تلك الأحاسيس التي استعرت كالنيران في جسديهما ليلة البارحة.

- أنا على ما يرام الآن، إنما غاية في الارتباك للضعف الذي بدا مني. لطالما كنت أخشى المرتفعات.

قالت ذلك بضيق.

- وهذا يجعل ما قمت به أمراً خارقاً.

وبدا في عينيه شعور عميق لم تره من قبل.

- هل من عادتك إنقاذ حياة الناس؟ أولاً، في المطعم والآن دانيال.

احمرت هولي خجلاً. هناك مشاعر كثيرة تحب أن تثيرها في نيال. لكن عرفان الجميل ليس واحداً منها، فتمتمت تجيب:

- الأمر أنني كنت في المكان المناسب بل، في الواقع، في المكان الخطأ، لأنني حاولت الذهاب إلى مكان آخر فضللت الطريق.

لم تخبره أنها كانت تجول في الأنحاء، شاعرة بالأسى على نفسها.

- سمعتك تتحدث مع أبيك عن اصلاحات تقومون بها.

وكشرت عابسة:

- كان عليك أن تفكر في أن الأولاد في تلك السن...

فقاطعها عابساً:

- بصفتي أباً لصبي في تلك السن، كان عليّ أن أفكر في أن الممنوع مرغوب وأن ما تحذرين الأولاد منه، يتهافتون عليه ومن حسن حظنا أن حس الاتجاه لديك مفقود وأن لك ذراعين قويتين. أنا أعرف الآن معنى التشبث بالحياة أمام موت مروّع. لم تشائي أن تفلتيه، أليس كذلك؟

بدت كلماته متهمة أكثر منها معجبة وكان في عينيه الملتهبتين المسمرّتين على وجهها اجهاد بالغ. فهزت كتفيها.

- وماذا أقول؟ أنا عنيدة.

ورأى مسحة من الكآبة تمرّ على ملامحها بسرعة.

- لو لم أمنعك من الخروج باكراً هذا الصباح، لما حدث شيء من هذا.

أمسك نيال بذقنها يدير وجهها إليه، مرغماً إياها على النظر إليه.

- أنت قذر جداً يا نيال.

ذلك أنها لاحظت، للمرة الأولى الغبار الذي يعلوه ويكسو وجهه وكأنه ممثل مسرحي يضع مساحيق الماكياج. وبجوع وحب، أخذت عيناها تجولان على وجهه القوي الخالي من كل عيب.

هز رأسه بحدة، فظهر بوضوح أنه لم يكن مهتماً بنظافة جسده حالياً، وهو يقول:

- هذه سخافة وأنت تعرفين ذلك.

ـ هل أنا...

وأبعدت ذقنها عنه، متجاهلة أنها خسرت احتكاك أصابعه القوية الدافئة بذقنها. حركت كتفيها المتصلبتين شاعرة بأن عضلاتها المجهدة أخذت تتصلب.

تنهد نيال ساخطاً:

ـ كادت جود تموت خوفاً على ابنها، ويا ليتك سمعت ما قالته لي قبل أن تدخلي. أنا لست بحاجة إلى إذن لأنفرد بخطيبتي في أي وقت من النهار.

ـ لكنني لست خطيبتك.

وابتسمت له بمرح تريه مدى مهارتها في مواجهة هذا الوضع بنجاح، رافضة أن تسمح للكآبة أن تبدو في لهجتها.

ـ نعم، حسناً، سنتحدث في هذا الأمر لاحقاً...

كان واضحاً أنه لن يدع الواقع يسدّ عليه طريق الجدل.

وتابع يقول بنعومة:

ـ في مطلق الأحوال، لقد حظيتِ بمنزلة رفيعة الآن لدى جود والباقين، ولو أردتُ التخلّي عنك، لأهدروا دمي.

وراء ابتسامته الساخرة، رأت ما جعل نبضات قلبها تتسارع. لكنها لجمت مشاعرها وأقنعت نفسها بأن ما تراه مجرّد نسج من خيالها.

ـ يمكنني أن أبدو فظيعة لا أطاق أثناء ما بقي من العطلة الأسبوعية، إذا شئت.

اقترحت هذا لتساعده. وهل يصعب عليها، وهي الموهوبة في قول الأشياء الخاطئة، أن تجعل نفسها منبوذة اجتماعياً؟

ـ يمكنني أن أكون سيئة للغاية إلى حد يجعلهم يتمنون لو تتخلّ عنّي... رغم أنني، في الحقيقة، لا أحب فكرة أن تنبذني أنت.

كما أن هذا لا يجعلني سعيداً أنا أيضاً.

أدرك نيال هذا وهو ينظر مذهولاً إلى الخصلات الذهبية التي تلمع تحت الغبار بينما كانت تتابع قائلة:

ـ فأنا أفضل أن أتخلى أنا عنك. عندئذٍ لن يلومك أحد.

إذا كانت ابتسامة نيال متوترة قليلاً، فإن هولي لم تلاحظ ذلك.

ـ ربما لكن الرجل له كبرياؤه.

أعلن ذلك مظهراً بهزل أنه جريح في كرامته.

ـ آه... أن تنبذك خطيبتك ليس بمثل السوء الذي نبذتك فيه زوجتك، وأنت...

ووضعت يدها على فمها على الفور.

ـ آه، يا إلهي... لم أقصد أن أجعل الأمر يبدو وكأن...

فقال يعترف بصراحة وهو ينظر إلى ملامحها المذعورة هازلاً:

ـ فعلاً، هجر المرأة لزوجها لايرفع من شأنه. لكنني لست مرهف المشاعر إلى هذا الحد. كل ذلك حدث منذ زمن طويل.

لكن هولي لم تقتنع وقد تجهم وجهها. إذا كان الحب لا يزال في قلبه، فعليها هي قبل أي شخص آخر، أن تعلم هذا. ويفترض به أن يقول هذا لأنه ليس من النوع الذي يستعرض آثار جراحه أمام الآخرين.

ـ لقد واجهت تارا الأزمة بشكل حسن.

فقال بجفاء:

ـ كثير من الناس أساؤوا فهمها وظنوها عديمة الإحساس.

ـ حسناً، أنا لست واحدة منهم.

قالت هذا بحدة مدركة تماماً سرعته في الدفاع عن تارا.

ـ وأنت ما زلت تهتم بها، أليس كذلك؟

ألحت عليه بهذا السؤال بما في ذلك من تعذيب لنفسها.

ـ لقد كانت تجمعنا أشياء كثيرة معاً.

بدت ابتسامة ضعيفة على شفتي هولي. حسناً، إنها لم تتوقع منه أن ينكر الرباط الواضح بينهما.

ـ وأنا دوماً سأحب تارا...

وأغمضت هولي عينيها، وهي تفكر في أنها تستحق ما سمعت لسؤالها

له، لكنه أضاف برقة:

- لكنني لم أعد مغرماً بها.

ففتحت عينيها بسرعة:

- أحقاً؟

وشعرت بتوهج وجهها وتابعت متلهفة.

- أنت لست مضطراً أن تخبرني بذلك.

- هذا مؤسف...

فقطبت جبينها بحذر:

- أهو كذلك..؟

- كنت أرجو ألاّ تكوني عديمة الإهتمام تماماً.

وبدت على فمه ابتسامة مضطربة وهو ينتظر جوابها. قد يكون لكلماته معنى ضمني، ولو أن ذهنها لم يتشتت، لأمكنها على الأرجح أن تتصور ما هو ذلك المعنى.

- ولماذا يهمني إن كنت مغرماً بتارا أم لا؟

- ربما هذا يؤثر على قرارك في ما إذا كنّا سنرى بعضنا.

وضعت هولي يديها الواهنتين المرتجفتين على جانبيها، وحاولت أن تبدو عفوية:

- أراك؟ أتعني بعد عطلة الأسبوع هذه؟

- يبدو أنك صعقت. خصوصاً بعد الليلة الماضية، أم تراك نسيتها؟

وكان في عينيه تهكم جاف ممزوج بالإحباط.

- هل أطلب منك شيئاً؟ إنني لا أحب أن تتوقف لقاءاتنا. وأظن أننا ثنائي متناغم.

ذهلت هولي لطلبه هذا. كيف يأمل أن تبقى على اتصال مستمر به؟ وابتسمت هازئة، فيما واصل نيال كلامه:

- أنا مستعد للاستمرار إذا كنت راغبة في ذلك.

اعترف بذلك بصوت عميق متهدج أرسل رجفة في كيانها.

سرّها للغاية أن تعرف أنه لا يريد الغاءها من حياته، فسألت مستفسرة.

- وكيف سيكون ذلك؟ أعني، إنني أعلم أنك لا تعرض عليّ الزواج.

وضحكت تدعوه، إلى مشاركتها هذه النكتة، لكنه لم يفعل فقالت بجد:

- وهذا يناسبني، لأنني لا أفكر في الزواج في القريب العاجل.

- أظنك سبق وذكرت هذا الموضوع من قبل...

ولا ضرر من التأكيد عليه. فقالت بجد:

- الزواج هو المصير الوحيد للمرأة، كما يفترض الناس...

- لأن الناس رجال.

صرفت هولي بأسنانها عازمة على أن تريه أن بإمكانها مجاراة أي شخص في مجال السخرية.

- الناس يفترضون أن كل امرأة تريد زواجاً وأطفالاً...

- هل تنقلين هذا مباشرة عن أختك روينا؟ لو أنني لم أرَ بعيني مدى سعادة أبويك، لظننت أنهما مطلّقان.

- أنا لست مثل روينا!

صاحت قائلة بذلك فأجاب بجفاء:

- أنا أعلم هذا. إذا أنا وعدتك بألاّ أعرض عليك الزواج، وأننا فقط سنتمكن من رؤية بعضنا البعض، ونخرج معاً أحياناً... ونعيش حياتنا كأصدقاء...

جعلتها لهجته المثقلة بالسخرية تشعر بأنها فجة وغير لبقة، فأخذت تحدث نفسها بأن ما يريده واضح تماماً. لم يكن يكشف في حديثه عن رباط عميق بينهما، لم يكن يتحدث عن الحب مطلقاً.

فراح صوت في داخلها يقول لها:

ما زال حبك سطحياً، أيتها الغبية. دعي عنك الإرتباك والحيرة الآن، فأنت تؤخرين فقط ما لا مفرّ منه.

- سأبدأ تخصصي في طب الأطفال الشهر القادم. وسأبقى في العمل ساعات طويلة...

ومع تتابع الأعذار، تمنت لو أنها تمحو هذا الأخير...

- هذا يجعلك بحاجة أكثر إلى الراحة والاسترخاء.

وأنبأتها ملامحه المسترخية بأنه لا يشك في نوع جوابها.

- عندما أكون عاطلة عن العمل، لا أكون صالحة لأي صحبة ترفيهية.

فقال ساخراً وفي صوته نبرة فولاذية:

- كل هذه العوائق التي تلقينها أمامي أصابتني بخيبة أمل. حذار يا هولي، وإلا قد أظنك ترفضين صداقتي.

فردت بحدة:

- بحق الله، أنت تعلم جيداً أنني أحب صداقتك.

ثم أردفت:

- ويا ليتني أستطيع رفضها.

ولم يكن السمع ليخطىء صدقها النابع من القلب. فقال بصوت صارم ساخر:

- هل ما يقلقك هو فكرة المسؤولية التي أحملها؟ هل تفضّلين ألاّ تخرجي مع أب؟

لم أختبر ذلك قبلاً. أنت هو الأول لدي. الحب الأول والأخير.

كما أخذت تفكر، شاعرة بسخونة دموع ملأت عينيها، وأدارت وجهها تغالب تلك الدموع بسرعة كيلا يراها، وهي تقول:

- لكن ذلك يعود إلى الحظ أكثر منه إلى قرار حكيم.

- يبدو وكأن حظك قد فشل.

واقترب وجهه الأسمر من وجهها، وهو يزيل الغبار الأبيض عن وجنتها.

- لا يهمني.

اعترفت بذلك بتمرد. نعم، إنها تريد التعرف إليه أكثر، ولكنها ستريه

أن بإمكانها أن ترفضه إذا ما اقتضى الأمر.

التمعت عيناها بالنصر وهو يأخذها بين ذراعيه القويتين.

- لا بد أننا سنشعر بكثير من السعادة.

كانت هولي تعتقد أن صداقتهما ستنتهي إلى ارتباط وثيق وقد لاحظت أنه بدأ يتعلق بها تقريباً. هي ذاتها كانت مغرمة به منذ سنين. وإذا ما تحولت هذه الصداقة إلى زواج يوماً ما، فما الضير في ذلك؟

ضحك من أعماقه عندما تأوهت برقة تحت تأثير عناقه المحموم:

- هل هذا ما تريدين؟

كان عناقه قد قلب حياتها رأساً على عقب وهذا ليس دليل خير. فهي لا تريد أن يتحول الأمر إلى بديل عن التفكير بالزواج.

* * *

- كيف وجدت إقامتك هنا؟

سألها نيال هذا بعد أن غابت أسرته، التي كانت تلوّح لها بعنف، عن النظر.

- أمضيت وقتاً ممتعاً. شكراً لك.

وأخذت هولي تنظر إلى يديها المتشابكتين في حجرها، بدلاً من النظر إلى الرجل الجالس بجانبها.

- حتى بعد محاولات أمي تعليمك ركوب الخيل؟

ولم يكن يبدو على نيال أنه يشاركها شعورها بالإرتباك.

رفعت إلى وجهه الهازل عينين ساخطتين:

- يمكنك أن تضحك، ولكن ما كنت ستفعل هذا لو كنت مكاني...

- إذا كنت ستقومين بعمل غبي كالسقوط عن ظهر حصان صغير فهذا أفضل مكان لك.

- لم يكن صغيراً بل حصاناً كبيراً.

- ظننته للطريقة التي كنت تنظرين بها إليه، أنه ربما يكون تنيناً ينفث اللهب.

فلوت هولي شفتيها:

ـ لن أمتطي حصاناً مرة أخرى.

ـ انهزامية.

والتفت ينظر إلى المقعد الخلفي حيث كان ابنه على وشك أن ينام.

ـ يمكن للخيول أن تشمّ الخوف.. أنا كذلك.

لم تكن النظرة الجانبية السريعة التي ألقاها عليها بمثل عفوية وخزته الماكرة لها تقريباً.

نظرت هولي إلى الطريق أمامها بعناد وحاولت أن تكابر. قطبت جبينها بتوجس بريء، وشتمت سراً قوة ملاحظته، فقال مطمئناً:

ـ إذا حملتك فلن ألقي بك إلى الأرض كما فعل الحصان.

ـ نيال!.

هتفت مستنكرة وقد توهج وجهها. ونظرت خلسة إلى المقعد الخلفي. وكان توم، الذي أمضى الصباح يلعب مع رجال المزرعة، مستغرقاً في النوم.

فقال مدافعاً عن نفسه:

ـ أنا أحاول فقط أن أريح بالك.

ـ عليّ إذن أن أخبرك بأنك فشلت.

قالت هذا بصوت أبح وهي تحاول أن تستعيد تلك الصور الرهيبة عن ركوبها الفرس... لا، ينبغي لها أن لا تفكر في ذلك.

ـ أخبريني ما بك يا هولي، ولا تزعجي نفسك بإنكار ذلك. أنت لم تشتميني منذ نصف ساعة على الأقل، ما يجعلني أدرك أن ثمة ما يقلقك.

ـ أنا لست قلقة. الأمر أنني لم أكن أتوقع شيئاً من هذا. وقد حدثت الأمور بسرعة. اتفاقنا هذا... أعني... هذا... نحن...

ـ أتحاولين أن تخبريني أنك لست من النوع الذي يهوى الرجل منذ الموعد الأول؟

فقالت عندما أحاط كتفها بيده:

ـ أنا أعلم أنك سائق ماهر، لكنني أفضل أن تضع يديك الإثنتين على عجلة القيادة. ثم إننا لم نخرج بعد في موعد.

ـ يمكننا أن نعالج هذا الأمر. سآخذ توم غداً لنتزلج على الثلج، تعالي معنا. إننا نتزلج معظم العطلات.

ـ معظم العطلات؟ هل هذا يعني أنك ماهر في ذلك؟

ـ يمكنني اجتياز الامتحان.

يا لجهنم! لقد رآها تسقط عن ظهر الحصان وليس بعيداً أن يراها تسقط عن خشبة التزلج.

ـ لا بأس. ألا يعترض توم... أعني، لا أريد أن أقحم نفسي في وقتك الخاص معه. وقد يستاء من ذلك.

ـ توم يعتقد أنك رائعة.

فقالت بصوت غليظ: «وأنا أحبّه».

فسألها برقة:

ـ هل كان لديك أصدقاء كثيرون يا هولي؟

ـ لم أحبّ أحداً منهم.

هذا يعني أحبّه هو ولا يمكن أن يكون نيال قد غفل عن هذا. أخذت تعنّف نفسها، لكنها دهشت عندما لم يلحّ عليها بالسؤال، فأضافت:

ـ يمكننا الآن أن نعود بالحديث إلى الماضي، بالنسبة إلى رأيك بي في البداية...

رد بجفول: «ظننتك نسيت ذلك».

فقالت بحزم: «أنا لا أنسى شيئاً».

ـ (لا شيء)؟ لقد ابتدأت تخيفينني.

لكن هولي، لتي بدا عليها الاستياء، أجابت:

ـ ربما ينبغي عليك ذلك.

فتنهد قائلاً:

ـ نحن الآن نتحدث عن المراهقة، أليس كذلك؟ تلك الليلة التي

طردت فيها ذلك الشاب . . ربما علينا أن نخرج هذا الأمر إلى العلن .

مرة أخرى تبدو قوة ملاحظته مخيفة في دقتها .

ـ لقد هرب ، في الواقع ، دون أي تشجيع ، يا نيال .

ـ ربما أنا أيضاً لم يكن شعوري حسناً نحو . . . نحو أي شخص في الواقع ، بما في ذلك نفسي .

ـ ليس نحوي أنا فقط ، إذن؟ عليّ أن أشعر بتحسن .

ـ ما زلت أتذكر ذلك الغرور الجريح في عينيك . وقد شعرت بنفسي وغداً تماماً .

ـ وقد كنت وغداً حقاً .

ـ رغم أن ضميري أصبح مرتاحاً بعد أن رفستني .

وهز كتفيه واستقرت عيناه لحظة على شفتها السفلى الممتلئة التي كانت ترتجف .

ـ كانت جود قد أخبرتني لتوّها أنها حامل في حين أن زوجها متزوج بأخرى .

انطلقت كلماته هذه بسرعة وبدا انزعاجه لكشف هذا الأمر واضحاً .

ـ كنت صبية صغيرة مصممة على تدمير نفسها .

ـ لم أكن . . .

ابتدأت بالإحتجاج لكنه قاطعها :

ـ دعي دلالات الألفاظ جانباً ، ولو هذه المرة فقط . أنا أعرف أنك كنت طفلة . . .

عضت هولي شفتها ، وودّت لو تناقشه في ما قاله عن تدمير النفس .

ـ أرادتني جود أن أشرح لأمي وأبي أن كل شيء سيكون على ما يرام في النهاية لأنه سيترك زوجته في الوقت المناسب . . . هل يمكنك تصديق ذلك؟

كان ما يزال وقع الذكرى قوياً عليه .

ـ وكما يمكنك التصوّر ، كنت متشوقاً إلى انهاء ذلك الحديث . ربما

كان يجدر الذهاب إليها . . .

وأطلق من حلقه صوت اشمئزاز ، وأخذ يحدق أمامه في الطريق عابساً .

ـ . . . وإن كنت لا أظنها ستصغي إليّ .

شعرت هولي بالعطف نحو نيال الذي أخذ يلوم نفسه لعدم وجوده بجانب أخته عندما كانت بحاجة إليه . . . وجود . . . جود المسكينة ، لا أحد يستطيع أن يتصور ما شعرت به تلك المراهقة المسكينة . لكن نيال الذي تملكه القنوط لعدم قدرته على مساعدة أخته ، ربما رأى فيها شبهاً بأخته .

ـ ربما ما كانت لتصغي .

وافقته على ذلك وهي تمنع يدها من ملامسة وجهه الحزين ومواساته .

ـ إننا لا نصغي لأحد عندما نظن أننا وقعنا في الحب .

ـ أتتحدثين عن خبرة؟

لم تدرك قبل أن يتكلم أن كلماتها العفوية قد يُساء تفسيرها ، فسألته ساخطة :

ـ ما هذا السؤال الذي تسأله؟ أتراني أسألك تفاصيل حياتك الغرامية؟

ـ سواء سألت أم لا ، يبدو أنك تعرفين الكثير . لم أكن في الحقيقة أفكر في الماضي . . .

فشحب وجه هولي :

ـ أتراك تسألني إن كنت أحبك؟

ـ ممكن . . . بطريقة غير مباشرة .

ـ لا تقلق .

واستطاعت أن تبتسم بمرح :

ـ لن أجعلك تمثل دور العاشق الولهان مرة أخرى .

وابتلعت طعم المرارة في فمها .

إن الحديث عن الماضي البعيد عندما كانت تتبع كل خطوة يخطوها ، أثار ذكريات تفانيها المربك في حبه . ويبدو أن نيال لا يريد أي تعقيدات في علاقتهما ، كالحب مثلاً . عليها أن تكون أكثر حرصاً في المستقبل .

ـ لقد ارتحت الآن.

لكن الشك راود هولي بأنها لم تقتنعه تماماً، فعادت تقول متصنعة المرح:

ـ كما أنك لست بحاجة إلى أن ترسل لي حشداً من الرعاع لتستعيد الخاتم.

وخلعت الخاتم وناولته إياه برصانة. وظنت لحظة أنه سيرفضه، لكنه قال بذهن شارد وهو يضعه في جيبه:

ـ كان يناسبك.

فقالت بصوت أبح:

ـ لقد جعل أعصابي تتوتر وأنا أتجوّل وفي اصبعي ثروة صغيرة.

ـ لا أظن ثمنه في السوق هو الذي كان يزعجك.

لم تشأ هولي أن تخوض ذلك الموضوع، فقالت بابتسامة مشرقة:

ـ كنت أودّ أن أدعوك للدخول عندما نصل إلى بيتي، ولكن...

ـ وكنت سأودّ أن أدخل.. ولكن...

ونظر إلى ابنه النائم.

ترك الإثنان الموضوع عند هذا الحد، لكن هولي كانت تعلم أن هذا الموضوع لن يمرّ مرور الكرام، فهي لن تستطيع اخفاء شعورها إلى الأبد. الحب من وجهة نظر نيال عقبة، وهو يريد علاقة لا ارتباط فيها.

***

٨ ـ الشقيقتان

ـ أوه... متى تعلمت الطهي؟

أخذت روينا تتنشق باهتمام وهي تلقي بحقيبة ملابسها الصغيرة على الأرض.

التفتت هولي ذاهلة، وفغرت فاها. وكانت الملعقة لا تزال في يدها.

ـ ما الذي تفعلينه هنا؟

وردّت خصلة من شعرها الثائر عن عينيها وقد أدركت أن جوابها قد يزج بها في قفص الاتهام.

ـ أعيش هنا.. تذكرين..

رفعت حاجبها وهي تنظر إلى شعر أختها. ولكن تعمدها السخرية لم يزد وجنتي هولي إلا احمراراً.

ـ لم أكن أتوقع... لقد فاجأتني...

أخذت تهمهم محاولة التعويض عن فتور ترحيبها بابتسامة مشرقة.

ـ ما أجمل أن أراك!

ما الذي جعل روينا تعود الآن دون سائر الأوقات. إنها تبدو رائعة إلى حد لا يوصف!

ولسوء الحظ، فإن لهجتها لم تنم عن حماس.

وضعت هولي ملعقتها من يدها، وهي تحمد دافعاً صبيانياً يحثها على دفع أختها إلى الخارج إذا كان فيه ما يحل عقدتها المستعصية ثم عانقت أختها قائلة:

ـ قصة شعرك تعجبني.

على الأقل كان هذا صحيحاً.

- يجب أن تحاولي اضفاء شكل جديد عليك، يا هولي. سيدهشك التغيير الذي سيحدثه ذلك فيك.

لم يجرحها ما تضمنه كلام روينا من أن مظهرها بحاجة إلى تغيير، فقد كان هذا صحيحاً.

وتابعت روينا ببطء وهي تشمل أختها بنظراتها الذكية.

- أنت، في الواقع، تغيرت حقاً ولكن ليس من ناحية الشعر...

وهزت كتفيها:

- عديني ألاّ تحاولي مرة أخرى أن تقصي غرتك بنفسك.

- كان ذلك منذ سنوات. لم تكن أحوالي المادية حينذاك، تسمح لي بالذهاب إلى الحلاق.

- وما زالت لا تسمح لك بذلك.

وكانت روينا قد ذعرت وهي تكتشف مقدار دخل أختها بعد سنوات كثيرة من الدراسة.

- بالمناسبة، ما رأيك بكتابة مقال شهري في مجلة، عن المرأة والصحة وسواهما؟ ستكون في البداية فترة اختبار طبعاً، لكن هذا سيساعدك مادياً.. أنا واثقة من ذلك.

فنظرت هولي إليها بارتباك:

- أنا، أكتب؟

- إذا لم تتمكني من ذلك، سأصرفك عن العمل. لا بأس في محاباة الأقارب ما دام العمل جيداً. إنهم يدفعون جيداً.

وذكرت روينا مبلغاً جعل ركبتي هولي تتخلخلان.

- فكري في ذلك. ثمة شيء قد تغير فيك حقاً. ما هو؟

لم تفعل كلماتها سوى إثبات شيء سبق وحيّر هولي عندما نظرت في المرآة، إنها فقط مسألة وقت قبل أن تعلم روينا أن ليس (ما هو) بل (من هو) الذي أحدث هذا التغيير الغامض في مظهرها. صحيح أنها لم تتحوّل بين ليلة وضحاها إلى فتاة رائعة الجمال، أو أن اشعاعاً داخلياً تفجر فيها فجأة...

ولكن هناك حتماً تغييراً يتعذر تحديده.

- ما الذي جعلك تعودين؟ هل من خطب؟

جاهدت هولي لكي تبدي اهتماماً. ونظرت إلى الساعة متوترة الأعصاب. آه، كلا. سيكون هنا في أي وقت الآن.

رفعت روينا كتفيها وهي تخلع سترتها الرائعة التفصيل من فوق قميصها الأسود المقفل، وقالت دون أن تواجه عيني أختها تماماً:

- لا عمل لدي في نهاية الأسبوع هذه، ففكرت في أن أرى ما إذا كنت تذكرت أن تطعمي السمك.

نظرت هولي حولها بذعر، متوقعة أن ترى بعض المخلوقات التعيسة طافية جامدة العينين مهملة في حوض زجاجي.

- سمك! أنت لا... أحقاً؟

- لا يا هولي، لا. كنت أمزح يا حبيبتي.

ورفعت خصلات شعرها الكثيفة التبنية اللون وهي تجلس برشاقة على كرسي دوّار مريح.

رأت هولي ابتسامة روينا البطيئة، تلك التي خلبت لب كل رجل عرفته على الإطلاق، وهي تسند ذقنها على أصابعها المتشابكة. كانت هولي تحب أختها إلى حد بعيد، لكنها غالباً ما كانت تتمنى لو أن روينا لم تكن جميلة خلاّبة إلى هذا الحد.

- إنه رجل، أليس كذلك؟

وأطلقت روينا ضحكة سرور وهي ترى ارتباك أختها.

- لقد عرفت هذا. ولا بد أن الأمر جاد ما دمت تعلّمت الطهي.

عبست هولي لهذه الإشارة إلى مهارتها في الطهو. فأثناء قيامها بأعمال المنزل أيام المراهقة، تغذت طيور المنطقة جيداً، لكن أفضل ما صنعته في المطبخ لم يصل يوماً إلى المائدة.

وأجابت وهي تنظر إلى كتاب الطهي باشمئزاز بالغ:

- أنا ما تعلمت ذلك بل أتعلم. وإذا شئت أن تعلمي، فإنه كارثة

حقيقية.

ورفعت يدها إلى جبينها المبلل بالعرق. لن يتطلب الأمر طويلاً حتى تدرك أنها كانت غاية في الطموح حين حاولت أن تطهو هذا الطبق، وأنه كان عليها أن تشتري الطعام جاهزاً من المتجر.

- حذار.

صرخت روينا وهي تهب واقفة:

- هل ما على أصابعك هو فلفل أحمر؟ لا تقرّبيه من عينيك.

أبعدت هولي يديها عن وجهها ومدتهما عابسة.

- لقد نسيت أن أعدّ الأشياء التي فرمتها مع أصابعي. أظنني كنت حكيمة لأنني لم أتخصص في الجراحة.

- اذهبي واغسلي يديك.

أصرت عليها روينا وهي تدفعها بعيداً عن المطبخ. نظرت إلى الوصفة، ثم إلى غلاف الكتاب الذي كانت هولي تستعمله.

- لقد كنت أستعمل هذا الكتاب، وهو بسيط للغاية.

ووضعت شعرها خلف أذنيها تستعد بذلك للعمل.

- لا يا روينا، هذا حقاً غير ضروري. سنأكل في الخارج، وإلا تأخرت عن الطائرة.

فقالت روينا بابتسامة عذبة:

- أنا أستقل طائرة «الكونكورد»، والطهو يريحني. صدقيني.

قالت هذا جواباً على صيحة هولي الهازئة بمرارة.

- أضف أنني أريد أن أعرف كل شيء عن رجلك هذا.

تجنبت هولي بارتباك نظرات أختها الفضولية. لم يحدث أن تبادلتا الحديث قط عن أصدقائهما منذ سنوات.

ولم تكن واثقة من أن هذا الوقت بالذات هو الأفضل للبدء بذلك.

نظراً لعلاقة روينا الطويلة وغير الواضحة مع نيال، شعرت هولي بضيق بالغ في الإعتراف لأختها بأنه هو الرجل الجديد في حياتها. وأحسّت أن قول

هذا بصوت مرتفع سيجعلها تدرك مدى حماقة هذه الفكرة. كما أنها لم تنسَ نزعة التملك العميقة في طبيعة أختها. فروينا لم تكن تسامح أبداً من يعبث بأشيائها. لم تكن هذه حالة مرضية أو أي شيء، ولكن..!

- إنه ليس رجلي.

أصرت هولي على ذلك معترفة بكآبة، ثم جلست على مقعد مرتفع وأخذت تنظر إلى روينا وهي ترتّب المكان. حيّرتها قدرة أختها على الطهو حتى دون أن تلقي نظرة على قائمة المواد الغريبة في الوصفة. وانفجرت تقول بحنان وأسف:

- ألا تخطئين أبداً؟

فضحكت روينا بمراراة:

- ومن أين أبدأ؟ ماذا عن العلاقات الغرامية؟

تملكت الحيرة هولي لرغبة أختها في الكشف عن أسرارها:

- هل من خطب، يا روينا؟ أوه...

هتفت مجفلة وهي تنزل عن المقعد:

- ماذا حدث؟

فأخذت هولي تدعك مؤخرتها:

- ذهبت إلى التزلج على الجليد هذا الصباح. لم أجلس طيلة النهار، كما أنني وقعت عن الحصان في «مونكسلي».

- لقد نسيت أنك ذهبت إلى هناك أليس مكاناً يشبه الأحلام؟ يمكنني أن أتصور حياة الطبقة العليا.

- لكنني رأيتهم أناساً عاديين.

قالت هولي هذا مترددة فأجابت روينا بفروغ صبر:

- نعم، أظنهم كذلك. أخبريني، هل كانت ملكة الجمال الباهتة هناك؟ تارا؟

فأومأت هولي قائلة:

- نعم، لكنها ليست باهتة.

- لا، إنها رائعة الجمال، فاسمحي لي إذن بقليل من الحسد.

تحيرت هولي لفكرة أن أختها قد تحسد امرأة على جمالها. أم ربما لأن تارا كانت زوجة نيال؟ وأثبتت كلمات روينا التالية ظنها هذا.

- لم أظن يوماً أنها المرأة المناسبة له. لقد حاولت أن أحذره، لكنه رفض أن يصغي إلي.

وبدا على روينا الشماتة لأن الزمن أثبت رأيها هذا.

- وهل توقعت منه أن يصغي؟

فضحكت:

- أوه، تقولين هذا بمرارة. هل أنا مخطئة إذا افترضت أنه كان يخيفك؟ يا له من رجل سيء. سأتحدث معه عندما أراه. أقل ما كان ينبغي له في تلك الظروف هو أن يكون لطيفاً معك.

فابتلعت ريقها:

- لقد كان لطيفاً جداً في الواقع... غالباً.

قالت هذا بخجل.

- هذا ما أرجوه. رغم أنني لا أدري ما الذي جعلك تمتطين حصاناً، حتى لأجله. أنا أعرف مدى قدرته على الإقناع، ولكن...

وجعلت ابتسامتها الخفية هولي تشعر بالضيق:

- والآن، أراك تذهبين إلى التزلج. لا أفهم. ليس لديك أي حس بالتوازن...

- ليس تماماً.

- يا إلهي! هل من خرجت معه اليوم هو صديقك الجديد؟

بدا من التعبير الذي ارتسم على وجه روينا أن التزلج على الجليد لم يكن لقاء عاطفياً. فتابعت تقول:

- أظن المشاعر تتأجج عند الإنزلاق بين ذراعين باهرتين.

- لقد كان ابنه معه.

انزلقت قدم هولي مرات عديدة، وتداركها نيال مرة أو مرتين، وسرت

الحرارة في جسدها وهي تتذكر كيف كان يحتضنها ليثبتها مكانها. في الحقيقة، لم يكن لدى هولي أي سبب يجعلها تتذمر حينذاك، ولا الآن.

- هل هو متزوج؟

- بل مطلق.

فسألتها روينا ساخرة:

- هل أنت واثقة من ذلك؟

- واثقة تماماً... في الحقيقة يا روينا، هو...

فزمّت روينا شفتيها ساخرة ولوّحت بيدها:

- هو كامل الأوصاف. أنا واثقة من ذلك. أظنه جاء.

قالت ذلك هازئة فأومأت هولي قائلة:

- ربما.

راح جرس الباب يرن بلا انقطاع.

- حسناً، ألن تفتحي له الباب؟

أخذت هولي تعالج القفل وهي تتساءل عما منعها من أن تخبر روينا مباشرة. إنها لم تفعل أي شيء خطأ فلماذا لديها هذا الشعور بالذنب؟

تخطى نيال العتبة وهو ينظر إليها بعينين لامعتين، وقد ارتسم الفرح على ملامحه لرؤيتها.

تقلصت معدتها بألم. وشعرت بوهن ودوار حين تدفقت الأحاسيس في كيانها. كيف استطاع أن يؤثر عليها بهذا الشكل بمجرد وقوفه هناك؟ وفي خضم ذلك الانخطاف، نسيت كل شيء عن روينا وما قد تبديه من رفض.

- نيال.

قالت بصوت أجش خافت.

- نيال؟

رددت روينا الاسم وهي تترك ما بيدها.

- هل هذا أنت؟

هتفت بذلك بفرح وهي تندفع متجاوزة هولي، فتراجعت هذه إلى

الخلف بحركة آلية . . . وكم تراجعت لأجل روينا .

- كيف عرفت أنني عدت؟ هل استلمت الرسالة التي تركتها في مكتبك؟

أخذت تسأله هذا وهي تحيط عنقه بذراعيها وتطبع قبلة على خدّه .

بدّد صوت روينا السحر الذي كان يحيط بهولي واجتاحت الغيرة قلبها ، في حين امتدت يد نيال لتلتف حول خصر روينا النحيف .

إنهما متلائمان بشكل مذهل . وأرغمت نفسها على تأمل الصورة الفنية السارّة التي ظهرا فيها عندما بادلها نيال القبلة بالحماس نفسه .

وسرعان ما عاد القلق الذي كانت هولي قد أبعدته عن ذهنها منذ أصبحا عاشقين ، هل كان هو وروينا مجرد صديقين حميمين حقاً؟ لم تكن روينا تتباهى قط بعلاقاتها ولا بذكر ما يتعلق بحياتها الخاصة .

- لم أكن أعلم أنك عدت .

فسألته روينا مستفهمة :

- لماذا أتيت إذاً؟

ثم أردفت موضّحة :

- لا تظن أنّني أتذمر . يمكننا أن نتكلم هنا بينما تهتم أختي بصديقها الجديد .

وحولت نظراتها المداعبة إلى هولي :

- لقد رأيتها أنت ، مؤخراً ، أكثر مما رأيتني يا نيال .

كان لمعان التقريع الذي بدا في عينيه أكثر مما تحتمله أعصاب هولي ، فرمقته بنظرة لوم متوسلة ثم أخذت تسعل متظاهرة بالاختناق .

- قلت لك أن تغسلي أصابعك من الفلفل ، يا هولي .

اهتمت بها روينا لحظة قبل أن تعيد انتباهها الكامل إلى نيال .

- قل لي . هل ابتلعت أسرتك قصة الخطيبة؟ عليك أن تخبرني بكل شيء فيما بعد . أما الآن فأنا أريد أن أعرف عن هذا الرجل المطلّق . هل أخبرتك هولي عنه يا نيال؟ لقد كانت غامضة جداً معي . أتعرف من يكون . . ؟

رأت روينا عينيه تنتقلان بشكل واضح جداً إلى وجه أختها . كانت

وجنتا هولي الناعمتان بالغتي الإحمرار وهي تبدو تعيسة للغاية . ربما استاءت لمزاحها هذا . . .

- أنا ، في الواقع ، أعرفه .

صوته المتملك جعل روينا تعود فتلتفت إليه وقد بدا عدم التصديق في عينيها الزرقاوين .

ثم رأت الطريقة التي كان ينظر فيها إلى أختها .

- هولي . . ؟

لم يكن في ملامح نيال أي تعبير مبهم ولكن روينا لم تستطع أن تفهمه .

- هل كنتما ، أنت وهولي . . ؟ أنتما . . ؟

واستحال صوت روينا العذب الجذاب ، أجش بشكل لا يُصدق قبل أن تستنكر الموضوع مباشرة .

- لا ، لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً .

وضحكت .

كان ضحكها هو الذي أعاد انتباه هولي إلى أختها . نعم! أرادت أن تصيح :

- بلى صحيح .

وبدت روينا شاحبة مصدومة بشكل بالغ .

- لِمَ لا؟

ورفعت هولي ذقنها بكبرياء ، واعية إلى أن نيال قد أمسك بيدها .

هل كان يعني بضغطه المستمر هذا على يدها التهدئة أم الدعم؟

وتراجعت هولي إلى الخلف ، للمرة الأخيرة ، لأجل أختها .

حولت روينا عينيها بارتباك من صورة يد نيال تمسك بيد هولي الصغيرة . وجاهدت بشكل ملحوظ لتستعيد هدوء أعصابها .

- لم أقصد جرح المشاعر .

قالت روينا هذا ببرود .

- وأنا لم أحسبها كذلك .

وأجابتها أختها باللهجة نفسها.

ـ كانت مفاجأة، وهذا كل شيء. أظن أن الأمر رائع.

لكن هولي رأت أن قول أختها هذا مبالغة غير مقنعة للتعويض.

ـ أخبرني بكل ما حدث... وكيف أنكما...

كانت هولي تعلم أن روينا لم تكن متواضعة، لكنها بدت غير ذلك وهي ترفع عينيها إلى نيال.

كانت هولي تعرف بالغريزة طريقة تفكير أختها. إلى متى تسكت عن ذلك؟ وماذا ستفعل بالنسبة لهذا الشأن؟ ونظرت هولي إلى أختها بقلق. شعرها الأشقر الرائع وساقاها الطويلتان وخصرها الرشيق، كل ذلك كان يبرز لمحة جمال جسدها الخلاّب. فإذا قررت روينا استعادة ما تملك، هل ستحصل هي على فرصة أمامها؟

كانت تعلم في أعماقها، بأن تفكيرها وتصرّفاتها تحدوها الغيرة ما كان يسبب لها الكدر والشعور بالذنب. كانت تعيش في ظل روينا طوال حياتها، لكنها لم تشعر، حتى هذه اللحظة، بمثل هذا الإستياء ولا حتى في سنوات مراهقتها.

لم يكن ذنب روينا أنها رائعة الجمال، ولم يكن ذنبها هي أن حبها لنيال جعلها تشعر بالضعف أكثر من أي وقت آخر. لو أنه كان يبادلني الحب، لاختلفت الأمور، كما اعترفت هولي لنفسها وهي تشعر بانقباض كئيب في صدرها.

ـ أنت تعرفني... فقد كنت دوماً (بنت البلد)...

وكانت روينا تعترف لنيال بهذا بسخرية من نفسها.

ربما أصبح لدي عقدة التشكك. أخذت هولي تفكر في ذلك وهي تنظر إلى نيال وهو يستجيب إلى حديث أختها الودود، باسماً بحرارة. هنالك نوع من الحب يسمى بالحب الأفلاطوني لا تدخل فيه الرغبة. رغم أن خبرتها بالرجال جعلتها تدرك أن الحب الأفلاطوني لأمثالها أسهل بكثير مما هو لأمثال روينا!

ـ توقت أن أعود لأجد كل شيء كما تركته! شقتي، أختي، صديقي المفضل..! إنني أشعر بالدوار... يقولون (غاب القط... اسرح يا فأر!) ولكن هذا...

ـ ما زالت لديك أختك.

ونظر نيال في اتجاه هولي فأرغمت هولي نفسها على الابتسام، فعاد يقول:

ـ وكذلك شقتك، وأنا حتماً ما أزال صديقك المفضل.

ربما كنت رجعية ومثالية، كما أخذت هولي تفكر وهي تبتسم كالمعتوهة في الظاهر، بينما تخفي كآبتها المتزايدة، ولكن ليس من المستحسن أن يصبح العاشق مجرد صديق حميم.

بدت روينا أروع جمالاً بعينيها الدامعتين وهي تقول بصوت أبح:

ـ لماذا، شكراً يا حبيبي.

وأخذت تلامس خده بأصابعها. وابتلعت هولي ريقها وهي تغالب رغبة قوية في أن تضرب يد أختها لتبعدها عن نيال.

ـ دعني أحضر العشاء لكما الآن، ثم نتابع ما نحن فيه.

ـ يبدو لي أنك سبق وكنت تفعلين ذلك.

قال ذلك بجفاء. وهو ينظر نحو المطبخ.

فقالت هولي:

ـ أنا طاهية تعيسة. لقد وصلت روينا في الوقت الذي كنت فيه أهمّ فيه بإلقاء الملعقة من يدي والإقتراح عليك بأن نتعشى خارجاً.

بدا نيال وكأنه لم يسمع التماس هولي الصامت الخروج للعشاء. وفكرت باستياء في أنه ربما يريد في الحقيقة أن يمضي أمسية مريحة مع روينا. نعم، من المؤكد أنه لن يمانع في ما إذا سنحت له فرصة لذلك.

ـ أليس من حسن الحظ أنني وصلت في الوقت المناسب؟

قالت روينا هذا وهي تدور في أنحاء المطبخ.

يكفي أن تتمتع روينا بالجمال الفائق والذكاء الحاد، أما أن تكون أيضاً

طاهية ماهرة... فلا يمكن أن تصبح الأمور أسوأ... وكما توقعت، هذا ما انتهت إليه السهرة التي كانت كابوساً بالنسبة إليها. ربما لم يكن في نية روينا استبعادها عن الحديث بالتطرق إلى مواضيع وأشخاص لا تعرفهم هولي... ولكن ربما كانت روينا مستاءة أيضاً. ومع مرور السهرة، أخذ كلامها يقل ويقل. وبعد أن أبدت أختها وحبيبها محاولتين فاشلتين ضعيفتين لإشراكها في الحديث، نسياها تقريباً.

***

ـ بدوت مشغولة البال قليلاً، هذه الليلة، يا هولي.

وكان نيال يسند يده إلى الجدار بجانب المصعد.

وفكرت هي في أنه لاحظ ذلك بعد أن ابتدأ الكدر والإستياء يغليان في داخلها.

ـ أحقاً؟ لقد وصل المصعد.

وأشارت ببرود نحو باب المصعد المغلق، فعاد مواصلاً الصعود إلى الطابق الأعلى.

ـ لقد حاولت، في الحقيقة، أن أكون مهذباً. فرأيتك وكأنك كنت مستاءة.

بدا السخط البالغ على وجهها:

ـ مستاءة؟

ـ تظاهرت بالصمم في كل مرة تحدثت فيها روينا إليك.

لم يتذكر نيال أنه أمضى في حياته سهرة أكثر إحباطاً من هذه، وقد صمّمت هولي على أن تجعلها أسوأ مما هي. ألم تدرك أنه أمضى وقتاً عصيباً، في محاولته التصرف بشكل طبيعي... حتى أصبح أمره يُرثى له.

وأدركت هولي لاحقاً أن عدم الإصغاء إلى روينا كان غاية في الفظاظة.

سألته بصوت معذّب:

ـ هل تحب روينا، يا نيال؟

فقال بخشونة غير مصدّق:

ـ هل هذا سبب هذا كله؟

وأمسك بذقنها برقة:

ـ انظري إليّ يا هولي.

لوت برأسها بعيداً، فتأوه بغيظ:

ـ هل ستمثلين دور «سندريلا» وتنزوين في كل مرة تدخل فيها روينا الغرفة؟ أظن أن الوقت قد حان لتثقي بنفسك قليلاً.

احتدّ غضب هولي لكلماته القاسية. وعضت بحقد شفتها السفلى المرتجفة.

وأخذت تفكر في أنها طريقته في إعلامها بأنها ليست جميلة.

ـ أتذكر أن «سندريلا» في الحكاية كان لها أختان قبيحتان، وأنا لي أخت واحدة جميلة.

ـ من المؤكد أن روينا مذهلة بجمالها، لكن هذا لا يعني أنه يجدر بك أن تغاري.

ـ لكن تارا نفسها كانت تغار منها. وعلى كل حال، أنا لست غيوراً إلى هذا الحد.

وكانت بقولها هذا، تكذب بكبرياء.

ـ كيف يمكنني أن أشترك في أحاديث عن أمور حصلت عندما كنت في المدرسة؟

فتنهد ساخطاً، ثم قال ساخراً:

ـ أنت تتصرفين وكأنك ما زلت في المدرسة. أنا وروينا مجرد صديقين.

ولم أستطع إلاّ أن ألاحظ أنها تخطط لشيء ما هذه الليلة.

وأخذ يتأمل مفكراً.

ـ لم تكن روينا تريد أن تكون وحيدة هذه الليلة. ولا بد أنه كان بإمكانك أن تري ذلك أم أنك كنت مشغولة بالشعور بالأسى على نفسك لأنك لم تكوني مصدر الاهتمام؟

تذكرت هولي بضيق أنها لاحظت تعاسة روينا ذلك المساء.

ـ ربما كان عليك أن تبقى لكي تساعدها.

وكان هذا كلاماً آخر صبيانياً مبتذلاً. ومن الغريب أنها هي التي كانت تخشى أن تفقده، تبذل جهدها الآن لكي تجعله يهرب بعيداً.

ـ أتظنينني أحب هذا أكثر مما تحبين؟

قال لها هذا بحدة وهو يمسك بكتفيها فجأة.

رأت نفسها قريبة منه فرفعت بصرها إليه وقد حيرها التوتر العنيف في صوته.

للمرة الأولى تلحظ التوتر البالغ في وجهه.. حتى عندما تجاوب قلبها مع عينيه العميقتين، شعرت بالازدراء لضعفها هذا.

ـ كنت أتحدث إلى روينا.. ولكن عقلي وقلبي كانا معك أنت. فأنت وحدك التي يهمني أمرها وأنت وحدك التي أحب محادثتها بصراحة... تكادين تفقدينني صوابي.

وارتسمت على ملامحه ابتسامة متوترة.

ـ على الأقل عندما وقعت على الثلج، منحتني عذراً لكي أضمك إليّ.

ثم جذبها إليه بقوة، فتنهدت ببهجة خالصة، وبدت لها غيرتها فجأة غير منطقية... وقالت بصوت أبح:

ـ كنت أشعر بالغيرة لأنك تولي الاهتمام لروينا، وقد بدوتما مناسبين جداً.

تمتم باسمها بصوت أجش قبل أن يعانقها عناقاً صادقاً فيه كل العاطفة العميقة التي يكنّه، وكان في عناقه لهفة ونهم.

ـ لماذا لم تعانقني من قبل؟

تأوهت قائلة هذا بغضب وهي تداعب شعره الكثيف.

ـ أريدك أن تعانقني كثيراً.

شعر نيال بالدم ينبض في صدغيه. وشعر بجوّ الردهة المكيفة حاراً استوائياً. وقال لها برقة:

ـ البداية سهلة، لكنني لا أضمن لك أنني سأتوقف.

ـ إذن لا تبدأ.

قالت ذلك آمرة.

ولكنه لم يصغ إلى ما أمرته به وعاد يعانقها بشغف ساحق وقال بصوت أجش:

ـ أظنني كنت على صواب. فأنت ساحرة وقد سحرتني.

كان مأخوذاً بسحرها بالفعل.

ـ نيال...

بدا التضرع... والإستسلام، في صوتها، بالإضافة إلى مقدار من العذاب رأته مرتسماً على ملامحه الداكنة المجهدة.

تراجع خطوة إلى الخلف.

ـ آسف.

وتخلل شعره الكثيف بأصابعه المرتجفة.

ـ لقد جرفتني المشاعر.

ـ وأنا أيضاً.

ـ أراك غداً.

ـ باكراً، أرجوك.

تردد لحظة، ثم عاد يضحك بسرور:

ـ سيمضي توم يوم غد مع تارا قبل أن تسافر إلى باريس.

ـ مع حبيبها؟

فأومأ وأضاف:

ـ كما إنه يوم عطلة «فيونا» المربية. لذا سأكون وحدي، ويمكننا نمضي النهار معاً.

ابتسمت هولي، لكن القلق كان لا يزال يتملّكها.

ـ ماذا ستفعل يا نيال؟ ماذا لو اعترضت روينا على صداقتنا هذه؟

غاص قلبها وهي ترى عينيه الدافئتين تستحيلان إلى ثلج. وتساءلت بتعاسة عما إذا أفسدت كل شيء.

انفجر فيها وعيناه تلمعان:

- روينا، روينا؟ وما شأنها هي بهذا؟ سيقلقني إذا أنت لم تقبلي صداقتي. . لماذا الاعتراض؟ فصداقتنا تعد بالكثير. أليس كذلك يا هولي؟

نظرت في عينيه وقد خنقتها العبرة، وانحنت كتفاها بضعف واستسلام.

- نعم. . أريد صداقتك بل ما هو أكثر من صداقة يا نيال.

ألحّ قائلاً:

- هل يعذّبك الشوق إلى هذا الحدّ؟

- نعم. . . وأنت؟

- عذاب.

قال هذا بجفاء. وتنفس بعمق وعاد النبض يخفق في صدغه.

- عليّ أن أراك غداً.

- ولماذا ليس الليلة؟.

- الفكرة مغوية، ولكن أظن عليك أن تعودي إلى أختك وتساليها عما يزعجها.

وتملكه شعور فظيع، أن يكون المرء نبيلاً، الأنانية ليست بمزاح.

ابتلعت خيبة أملها وقالت:

- أظن أنها على الأرجح ستفضي إليك أنت بأمرها.

- ليس لدى روينا أصدقاء كثر، يا هولي.

فكرت هولي في الدائرة الواسعة التي تحيط بأختها، ثم نظرت إليه ذاهلة، وعرف ما تفكر فيه، فقال:

- أعني أصدقاء حقيقيين.

كان لديها صديق واحد، وكانت هولي تبخل به عليها.

أجابته بلهجة ذات معنى:

- لديها أنت.

بدت ملامحه باردة وهو ينظر إليها.

- هذا قياس بمكيالين، يا هولي، أنت تريدين مني أن أنسجم مع

مهنتك التي أوضحت لي أنك تفضلينها علي.

وأجفلت هولي وهي تدرك أنه فسر تعليقاتها الدفاعية بأنها نوع غير مرن من مبادىء العمل بينما هي تحبّ أن تجمع بين العمل والزواج. وربما لا تستطيع معارضته الآن دون أن تقدم بعض الإيضاحات الباعثة على الضيق.

- وأنا أقبل هذا.

وكان الإستياء ظاهراً بوضوح في صوته. وللمرة الأولى، تساءلت هولي عما إذا كانت في الواقع تقول ما يريد أن يسمعه حقاً، رغم كل شيء. وهزت رأسها معتبرة هذه الفكرة مجرد وهم.

- لكن هناك أشياء عليك أن تقبليها أنت أيضاً.

أضاف ذلك عابساً عندما حاولت أن تستجمع أفكارها المشتتة.

- أنا في الواحدة والثلاثين يا هولي. ولديّ كثير من الأصدقاء، كما أن عندي زوجة سابقة وولداً، وأسرة وعملاً. . لن يتغير شيء من هذا فجأة لأن فتاة ذات شعر أحمر دخلت حياتي. إذا أمكنك أن تطلبي مني التخلّي عن أصدقائي، كم سيمضي من الوقت قبل أن تطلبي مني التخلي عن ابني؟ أنا لا أستطيع. . .

وسكت غاضباً بينما كان يتمزق وهو يفكر في مدى استعداده لتعديل حياته لكي تدخل هذه المرأة إليها.

- لن أفعل هذا أبداً!.

صرخت بهذا مذعورة.

لكنّ، وجهه بقي متحجراً، ولم يتجاوب مع هتافها هذا، فقال:

- فكري في الأمر.

ولم يُضف قائلاً: «إذا لم توافقي على ذلك، سيكون الأمر صعباً. . .».

لكن ملامحه قالت ذلك بوضوح.

أخذت تنظر إليه وهو يتوارى في المصعد. كانت واثقة تماماً من أنها ستفكر في ما قاله هذه الليلة.

***

٩ ـ لن أملّ

ـ لم أكن واثقاً من أنك ستأتين.

تنحّى جانباً حتى تدخل الردهة. وبينما عكست لهجته المقتضبة نفاد صبره لتأخرها، لم توح ملامحه بأنه كان يذرع أرض الغرفة بقلق طوال الساعة الماضية.

ـ لم أكن واثقة من أنك ما زلت تريدني.

فزمجر مشككاً:

ـ هذا لا يعقل.

تملك هولي الاضطراب، ليس فقط لكلماته المؤثرة هذه، وإنما أيضاً لجاذبيته. ونظرت حولها. كانت الردهة تعجّ بالأعمال الفنية الأصيلة، وأغلبها مما كان يعرض للبيع في المزادات العلنية. إن المنازل المطلة على حديقة عامة كهذه، يملكها عادة المحظوظون الذين بإمكانهم أن يدفعوا ثمن ما يريدون مهما بلغ.

ـ لم أكن أعرف في الواقع أين تعيش.

ونزعت وشاحها الحريري الملون من حول عنقها وحملته بيدها مترددة...

ـ وهذا جعلني أدرك أن علاقتنا ليست تقليدية.

وتلعثمت حين أخذت تصف نوع علاقتهما.

ـ علاقة أفلاطونية؟.

سأل ذلك وهو يدخل غرفة الجلوس المشمسة.

فغرت فاها مدهوشة لاختياره هذه الكلمة، فاستدارت لتحدق إليه بحرص. كان في عينيه معنى عنيفٌ للغاية جعلها ترتجف ثم تذوب دفئاً.

ـ هناك كلمة واحدة تصف ذلك.

أخذت تهذر لتغطي التوتر الحاصل عن هذا الصمت المتوقع.

ـ هل يعجبك هذا؟

وألقت بطرف الوشاح نحوه.

ـ إنه هدية من روينا... ماركته شهيرة... لكنني نسيتها.

قالت هذا بغموض. كانت روينا قد أكّدت لها أن هذا ليس شيئاً رخيصاً لتعامله بإهمال... وكان عدم اهتمام هولي بمقتنياتها مبعث ازعاج كبير لأختها.

أمسك نيال بالوشاح قائلاً بذهن شارد حتى دون أن ينظر إليه:

ـ إنه جميل جداً.

وجذبه فتركته هولي ينساب من بين أصابعها.

ربما لم يكن ينظر إلى الوشاح، لكنه كان ينظر إليها... ينظر بطريقة جعلت الدم يسري متدفقاً بشدة في عروقها. ودون أن يحوّل نظراته، ألقى بالوشاح دون اهتمام على طاولة بجانب المدفأة.

ـ عنواني ليس في الدليل، فكيف عرفته؟

ـ من أوراق أختي الخاصة.

وأضافت مدافعة عن نفسها قبل أن يجد وقتاً ليعنّفها على تصرفها هذا.

ـ لأنني لا أستطيع أن أطلب منها عنوانك، أليس كذلك؟ المكان هنا جميل جداً.

وتنهدت باستحسان وهي تسير نحو باب يؤدي إلى حديقة جميلة خضراء واسعة.

ـ الحديقة هي السبب الوحيد الذي جعلني أبتاع هذا البيت. الصبي بحاجة إلى حديقة كما أن هناك مدرسة جيدة قريبة من المكان.

كان نيال، بصفته أباً محباً بالغ الشعور بالمسؤولية، يهتم بهذه الأشياء. وتملكها الإعجاب بمحبته هذه وفكرت في أن الرجل الحقيقي الذي تعرفت إليه هو غير ذلك الفتى العابث الذي صوّرته الصحافة. وإذا ما قرر يوماً الزواج مجدداً، فهي واثقة من أنه سيفعل هذا من كل قلبه. لكنها كانت تعلم أنه لن يقدم على ذلك قبل أن ينسى فشل زواجه من تارا، وحتى ربما تارا نفسها.

خنقت آهة تعيسة، وفكرت في أن ذلك اليوم قد لا يأتي أبداً، وإذا أتى فقد تكون هي قد غابت من حياته منذ مدة طويلة، ذلك أن قدرها أن تكون مجرد عابرة سبيل... واغرورقت عيناها بالدموع فجأة، فخفضتهما لكي لا يراها.

وقالت بخشونة:

- أظن أن الجميع يحب أن يكون أمام منزله حديقة أو حتى بقعة خضراء صغيرة. كان يفترض بي أن أكون هنا قبل الآن، لكنني كنت أبحث عن شقة أسكن فيها.

- كنت أظن أن روينا لن تعود قبل مدة طويلة. أتراكما...؟

قاطعته مازحة إذ قرأت أفكاره.

- أخذنا نتقاتل لأجلك، وطردتني في ليلة لا ضوء قمر فيها؟ آسفة إذا خيبت أملك، يا نيال، لكن اسمك لم يدخل حديثنا.

وبدا عليها المرح. فقد قررت ألاّ تذكر له أنها عندما أنهت الحديث عن نيال قالت لأختها:

- مسألة نيال شأني وحدي، يا روينا.

مشدّدة على كلمتي شأني وحدي.

- هذا إذا لم أضع في الحساب تحذير روينا لي بأنك سريع الملل...

قالت هذا بلهجة هازلة.

- لا، الأمر ما زال مبكراً لمثل هذه التطلعات.

- الملل منك؟ إنها حقاً لا تعرفك جيداً، أليس كذلك؟

ومنحها ابتسامة جذابة للغاية.

- أظن هذا مديحاً؟

- نعم.

- إذا كان لديك أي شك، يمكنك أن تسألي.

- أنت على صواب بالنسبة إلى روينا.

- عندما تعرفينني بشكل أفضل، ستعلمين أنني على صواب دوماً...

أزاح مزاحه القلق من ملامحها لحظة قالت بعدها:

- بعد خروجك راحت تبكي.

ورأت على الفور أن نيال أظهر دهشته لهذا التصرف، ربما أكثر مما فعلت هي:

- روينا؟

- راحت تتساءل عن علّة حياتها وتبكي. لم أكن أعلم أن روينا سبق وتملكتها الشكوك. كانت دوماً تعلم بالضبط ما تريد. أظن الأمر له صلة بكين تايلر.

وهزت رأسها مفكرة:

- لم تقل شيئاً معيناً، لكنها كررت اسمه كثيراً. الدهشة لا تبدو عليك. هل هذا سبب انتقادك له؟ هل كنت تعلم؟

فهز نيال كتفيه.

- رأيت كين ذات ليلة يغادر بيتها متأخراً. حاولت أن تتستر على الأمر، لكن أثر البكاء كان ظاهراً عليها. له سمعة...

فقاطعته بجفاء:

- وكذلك أنت.

فقد لاحظت أنه لم يقدم أي تفسير عما كان يفعله هو أيضاً في شقة روينا متأخراً تلك الليلة.

وتابعت تقول:

- كما أنك جعلتني أبكي الليلة الماضية، فهل يجعلك هذا رجلاً سيئاً؟

جمد نيال في مكانه وأظلمت عيناه. المرة الوحيدة التي رأى فيها دموعاً في عيني هولي كانت بعد سماعها قطعة موسيقية لبوتشيني. عجباً، هولي العنيدة المعتمدة على نفسها... تبكي؟ وثار شيء في أعماقه بعنف.

ـ أنت بكيت؟

لم تلحظ أن صوته العميق قد بدا غير متزن بشكل غريب وأكثر جدية من العادة.

وأدرك فجأة أنه كان سيبذل ما في وسعه ليقيها الألم والبكاء، ومع ذلك كان هو الذي جعلها تبكي! أخذ نفساً عميقاً مرتجفاً وبدا عليه الإشمئزاز من نفسه:

ـ أنا أبكي أحياناً، ولكن...

وابتسمت له بشيء من التردد، لكنه لم يتجاوب معها... كانت ملامحه متصلبة بشكل غريب، وقد توتر فمه حتى أصبح مستقيماً، وتابعت.

ـ لكن ليس إلى حد بعيد.

تنحنح نيال قبل أن يجيب أخيراً:

ـ ما كان ينبغي لي أن أقول ذلك... لم أقصد أن أجعلك تبكين.

وكانت نظراته تتجنب نظراتها.

ـ أعرف هذا. لكنك كنت على صواب تماماً. لقد فكرت ملياً بما قلته لي. لكل منا حياته الخاصة وكوننا صديقين لا يعطيني أي حق عليك. أنا أعلم ذلك.

كان وقع هذا القول شديداً عليه، وعندما لمحت اهتمامه، تراجعت بشكل غريزي إلى الخلف.

أمسك بكتفيها بحزم وقال معنفاً:

ـ علاقتنا لم تعد صداقة عادية.

انغرزت أصابعه في ذراعها، وبدا لها وكأنها، بشكل ما، قد جرحته في العمق.

ـ إن كنت تريدين أكثر من علاقة أفلاطونية، فأنا مستعد لذلك.

فشهقت واحمرّ وجهها للغاية:

ـ في الواقع، أنا مسرورة جداً لفتح هذا الموضوع. أنا لا أريد أن أكون فتاتك لليلة الجمعة أو أي شيء آخر يتلاءم مع...

ـ مع الأخريات في حريمي الواسع.

كان التوتر لا يزال ظاهراً على ملامحه، ولكن قبضته ارتخت وأحسّت هولي أنه هدأ قليلاً.

ـ فتاة الجمعة؟

وارتجفت زاوية فمه. مد يده يدس خصلة من شعرها خلف أذنها، ثم قال لها جاداً:

ـ ما كنت قط شخصاً عابثاً. هذا إلى أنك فتاة عالية النشأة، ومتفتحة الذهن. ولا أظن سيكون لدي وقت...

وبدا الهزل الجاف حول شفتيه بوضوح.

ـ كنت أفكر أكثر في مشاعري.

ابتهجت هولي بعد أن شعرت بمزيد من الثقة بالنفس وتأكدت من أن نيال يريدها هي ولا أحد سواها.

ضحك نيال وتلاشى من وجهه ذاك التوتر.

ـ أنت تشعرين بالقلق من تسرّب الملل إلى نفسي. أليس كذلك؟

وبدا عليه أنه وجد الأمر مسلياً للغاية.

ـ لو بلغت عامي المئة، لن أملّ منك أبداً، أيتها الساحرة الصغيرة.

قال ذلك، محيطاً وجهها بيديه الكبيرتين.

ـ يمكنك أن تنقلي عني هذا الكلام، إن شئت.

وكان في تفحصه لها من رقة الهزل ما أوقف قلبها عن الخفقان.

ردت هولي بابتسامة تظهر مدى حبها له. وفجأة، لم تعد تهتم باخفاء مشاعرها. في مطلق الأحوال، سيعرفها في النهاية فلماذا ليس الآن؟ لا يعني هذا أنها ستفضي بها إليه، ولكن ماذا يهم إذا شعر بها...؟

ـ هل ينقل الناس عنك كثيراً؟ هل تعلم، يا نيال، بدأت أقلق من

طموحك للألوهية.

ـ أسكتي.

قال هذا بلطف قبل أن يغمرها بعناق جرفها من رأسها حتى أخمص قدميها.. هل هذا حقاً مجرد عناق؟ فقد عجبت للمشاعر التي أججها فيها. عندما حاول الابتعاد، تعلقت به ووضعت رأسها على صدره. ثم رفعت رأسها قائلة بشيء من السذاجة:

ـ أنت أروع رجل، ويمكنك أن تنقل عني ذلك.

ابتسمت له، فحبس أنفاسه، ومضى يجاهد للسيطرة على مشاعره. لقد تعرض للإغراء في مناسبات عديدة، وغالباً من نساء خبيرات في الحب. ولكن ليس أمام هذه الإبتسامة الساحرة. هذا النوع من المشاعر أشبه بخنجر يذبحه، وهو ما دفع الرجال لمحاربة التنين واشعال الحروب على مرّ الأزمان.

ـ لم أظن قط أنك ستأتين.

ازدادت ابتسامتها رضا ومكراً وهي تضع ذراعيها حول عنقه. كان تفاؤلها الطبيعي يثبت ذاته. لقد تصورت أن نيال، كان سيمضي الليلة ظاناً أن علاقتهما قد انتهت... فهما مختلفان. وصحيح أن روينا لم تتناول هذا الموضوع باسهاب، لكنها تمكنت بقليل من الكلمات المختارة أن تنمي بذور الشك لديها.

أمسك يديها وقال بجفاء:

ـ فلنتحدث بعض الوقت.

ـ لا بأس في ذلك. فلا أعتقد أنك طلبت مني القدوم كي نلعب الدومينو.

ـ هل حقاً تحسنين لعب «الدومينو»؟

ـ أنا أسطورة على الصعيد المحلي.

كان من المستحيل ألاّ تستجيب للابتسامة الفاتنة في عينيه.

ـ ربما بإمكانك أن تعلميني بعض الخدع.

ـ ربما...

ـ الصعوبة هي أننا نمضي معظم وقتنا في الخارج وليس في البيت. إنني واثق من أنك ستوافقين على دروس في الدومينو. إذا نحن أمضينا مزيداً من الوقت معاً، سيسهل انتقالك إلى منزلي للاهتمام بتوم، حتى أنني قد أتمكن من تعليمك الطهو.

ـ تجيد الطهو؟

سألت هولي هذا، وقد غضّت الطرف عمّا سمعته وشعرت أنها في حلم.

ـ مقارنة معك، يمكنني أن أطهو.

كان قلبها يخفق بعنف. ولم تستطع أن تتغاضى أكثر عن السؤال الذي ينهشها.

ـ هل تطلب مني أن أنتقل للعيش هنا؟

شبك نيال ذراعيه فوق صدره وسمّر نظراته الغامضة على وجهها، ثم قال:

ـ هذا صحيح.

ـ آه... هذا شيء أبداً لم...

ـ لم تتوقعيه؟

فاستدارت إليه.

ـ أتمنى لو أنك تكفّ عن ذلك.

ـ عن ماذا؟

ـ عن وضع الكلمات في فمي.

ـ لابأس... هنالك أشياء أخرى أفضّل أن أضعها في فمك.

وازداد اللمعان في عينيه عندما أطلقت نشيجاً متقطعاً.

ـ ماذا كنت تريدين أن تقولي؟

وكان يعلم جيداً أنها ما كانت لتستطيع قول شيء على الإطلاق.

ـ كنت أريد أن أقول إنك فاجأتني.

- وما هو رأيك بفكرتي هذه؟
- هل تريد الحقيقة؟
- هذا يعتمد على جوابك.
فقطبت جبينها. لم يكن الأمر مزاحاً.
- أتريدني حقاً أن أنتقل إلى بيتك..؟
ما زالت لا تستطيع تصديق أنه يعني ذلك. ملامحه الهادئة الباردة لا تظهر أنه كان ملهماً بهذا الاندفاع الشاعري.
- وماذا سيقول الناس؟
- وما همك؟ ستأتين للاهتمام بالصبيّ.
- أنا يهمني ما يقوله بعض الناس، مثل أمي.. وأبي...
- وعمتك العظيمة وبنتا عمتك... أنا أعلم هذا... وأرنبك المدلل حساس جداً بالنسبة إلى التغيير هو أيضاً. لقد سألتك عن رأيك يا هولي. وأظن أن هذا أمر هام هنا.
- أخبرني لماذا طلبت مني ذلك.
- طلبت منك هذا لأننا منسجمان على الصعد كافة.
- هذا ليس سبباً يجعلني أنتقل إلى منزل رجل.
قاطعته بذلك بصوت خشن. أيظن ذلك حقاً..؟ يبدو وكأنه يظن ذلك ورغم أنها كانت تتلهف إلى شيء من العمق في مشاعره، فقد كان الشوق المتقد فيه سارّاً إلى أبعد حد.
وقال يعترض بحزم:
- إنه سبب عظيم. أضف أنني عندما أكون معك، أجد بيننا الكثير من القواسم المشتركة.
إنه يفكر بي كما أفكر فيه... وأوشكت أنفاس هولي على الاحتراق وهي ترغم نفسها على التنفس ببطء. وكانت عيناها تلتهبان في وجهها الناصع البياض.
- لا أظنك فكرت في الأمر من كل نواحيه يا نيال.

كان على أحدهما أن يكون واقعياً.
- لم أفكر في غيره يا هولي.
خرجت هذه الكلمات بالرغم عنه تقريباً، ولمعت عيناه باستياء:
- لمَ لا تريدين المجيء إلى هنا؟ توم يحبك، أم أنك لا...
- الأمر لا يتعلق بتوم.
قالت هذا مقطبة حاجبيها.
- أنت تمضين في العمل ساعات طويلة، ولن يكون عليك أن تعودي إلى البيت وتبدأي في الطبخ والتنظيف. مدبرة منزلي تعيش في شقة فوق الكاراج. وهي تدير المنزل كالساعة.
رفعت يدها ضارعة بحدة:
- كفى. ليس عليك أن تخبرني عن البيت يا نيال... أخبرني فقط عن الأسباب التي تجعلك ترغب بي هنا.
- أنت تعملين ساعات طويلة وأنا كذلك.
- هذا صحيح.
- أريد أن أمضي معك أكثر من ساعات قليلة منتزعة من جداول أعمالنا.
- أحقاً؟
- يبدو عليك الذهول؟
- الذهول يغمرني.
فقال غاضباً:
- هل هي جريمة أن أرغب في المزيد؟ أنا أعرف أن استقلاليتك مهمة بالنسبة إليك. ولكن هذا لا يكفيني.
وقطب جبينه وهو يحملق فيها. وغمر هولي الذعر.
- أرى... أننا سنعلم قريباً ما إذا كان الملل سيستقر بيننا.
وكان صوتها شارداً وهي تقول ذلك.
- سبق وأخبرتك أنني لن...

- كنت أفكر في الواقع في أنك من سيتملكه الملل لا أنا.
- لن يملّ أحدنا من الآخر.
- لنتصافح ونعقد الصلح.

مدّ نيال يده ففعلت هي الشيء نفسه، ولكنه بدلاً من أن يهز يدها مصافحاً أمسك بها يشدّها إليه يحتضنها بذراعيه القويتين. فتعلّقت به واهنة.

- أنت ساحرة. وسحرك يخيفني.. لماذا لا أعانقك..؟

قال ذلك بلهجة آمرة مستعجلة.

- أنت تجعلني أبدو مثيرة للشفقة.
- بل أنت حلوة مغرية المرأى والمذاق.

كان ينظر إليها بجوع واضح. وقالت بصوت راعش:

- يمكنني أن أعيش العمر كله على هذا.

فرفع حاجبه:

- وأنا؟
- الزمن سيحكم.

ثم أضافت:

- حسناً، في الواقع، يا نيال، عليّ أن أذهب.
- لن تبدأي عملك قبل يوم الإثنين أليس كذلك؟
- لا أتحدث عن هذا. الأمر أن روينا بدت مكتئبة للغاية فاقترحت عليها أن نذهب للعشاء الليلة...
- حسناً.. لن أعيقك عن الذهاب. ولكن ما رأيك الآن لو ألقيت نظرة على منزلك الجديد؟

***

١٠ - زائر الليل

استيقظت هولي من نومها العميق على طرق على الباب. أشعلت النور بجانب السرير. ثم أزاحت بقايا النوم عن أجفانها.

نظرت إلى الساعة. أترى أغفلت روينا عن موعد رحلتها؟.

ارتدت هولي معطفها المنزلي واتجهت إلى الباب. وعندما همت بفتحه أوشك زائرها على الوقوع أرضاً.

- أين هي؟

سألها بشراسة. ثم تراجع إلى الخلف واستند إلى الجدار ليثبّت نفسه ويواجه مشكلة التقدم مرة أخرى إلى الأمام.

- كين..؟

وهرولت خلفه وهو يدخل غرفة الجلوس المفتوحة.

- أنا أعرف أنها عادت... لقد رأوها... إيّاك أن تنكري.

كان كين تايلر كثير الاعتداد بالنفس، رائع الأناقة، ودائماً بصحبة فتيات طويلات على دراجات نارية سريعة. لكن هذه الليلة لم يكن يبدو مذهلاً كعادته... بل محطماً.

فقد أرخى لحيته وكانت عيناه الخضراوان محمرتي الأجفان محتقنتين بالدم. وكان في حالة يرثى لها.

كان التبدل المفاجيء من ذلك الرجل الأنيق المهذب إلى هذا الرجل المحطم، كافياً لكي يجعل هولي تحدق فيه، عندما أخذ ينظر خلف المقاعد

وحتى داخل الخزائن بحثاً عن روينا.

وكان يقول من آن لآخر:

ـ أنا أعرف أنك هنا.

ـ كين. أظن عليك أن تجلس...

وسكتت. ربما لا. إنها غير واثقة من أنه سيكون بإمكانها، إذا هو جلس، أن تجعله يقف مرة أخرى. وقالت له محذرة عندما اندفع إلى غرفة النوم.

ـ لا يمكنك أن تذهب...

لكن كين لم يكن مستعداً للإصغاء. وشعرت بالقلق وهي تتبعه.

ـ آه، يا إلهي، أين هي؟

واستحال الرجل الكبير الحجم صبياً صغيراً.

ـ أنا أعرف أنها هنا في مكان ما. إنني أشم رائحتها.

أصر على ذلك وهو يرفع الوسادة إلى أنفه يشمها بعمق.

ـ ما زالت دافئة. وكذلك الفراش... يا هولي.

ـ لقد عادت إلى نيويورك يا كين.

قالت له هولي هذا برقة وقد فاض قلبها الحنون عطفاً.

ركعت على حافة الفراش وأخذت تنظر إلى هذا الشاب الذي كان في حالة يرثى لها.

ـ لا أصدقك.

ـ ما كنت لأكذب عليك يا كين.

ـ لا. أنت فتاة طيّبة يا هولي. لماذا لم أقع في غرام فتاة طيبة مثلك؟ فتاة عاقلة؟

وأمسك بيدها ينظر إليها ضارعاً.

ـ أنت لست على ما يرام يا كين.

فقال برصانة:

ـ ماذا أفعل يا هولي؟

وأخذت تربّت على كتفه تخفف عنه:

ـ الأفضل أن تبقى هنا.

فتمتم وهو يغمض عينيه:

ـ ستكونين زوجة رائعة لرجل ما، وأنا شاكر جداً.

أضاف ذلك بأدب بالغ. ومضت حوالى عشرين دقيقة قبل أن يغط في النوم.

لم يكن هذا بالحسبان. خلعت هولي حذاءه عنه، وكذلك ربطة عنقه وفكت بعض أزرار قميصه. ثم استعملت الوسائد لكي تسند الرجل على جانبه في وضع يساعده على استرداد وعيه.

وفتحت السرير المطويّ الذي تستعمله عادة عندما تكون أختها هنا، وأعدت لنفسها فراشاً.

كانت هولي تطوي السرير في الصباح التالي عندما استيقظ كين. ورغم أنها تعمدت احداث ضجة كبرى إلا أنه كان يواصل نومه بعمق، وعندما صحا، جلس ونظر إليها ثم أمسك برأسه وسقط إلى الخلف وهو يتأوه.

ـ آه، يا إلهي. أنا أموت.

ـ عليك ألاّ تفكر بذلك.

ـ هولي؟

وجلس على السرير، باحتراس هذه المرة، وأخذ ينظر إليها من خلال عينين ضاقتا وقد بهرهما ضوء الغرفة، ورأت في عينيه اللحظة التي تذكر فيها كل شيء، وتأوه قائلاً:

ـ هولي، لقد أزعجتك الليلة الماضية. ولكن أرجوك لا تقولي شيئاً لأحد.

ـ حفظ السر هو عادتي. ولكن من المستحسن أن تحضر عاملاً يرمم الجص الذي ضربته بالباب، لأن روينا تدقق في هذه الأشياء.

لدى ذكر روينا اكتست ملامح كين بالحقد والشرود. ولم تستطع هولي إلا أن تتساءل عما كان سيحدث لو كانت روينا هنا الليلة الماضية.

- سأفعل هذا. آسف لأنني شغلت سريرك الليلة الماضية.
- الدوش ومعجون الأسنان تحت تصرفك، إذا شئت.
فقال شاكراً:
- أنت ملاك. هل لديك شيء كالأسبرين؟
- الأفضل أن تأخذ «البارا سيتامول» حذراً من أن تكون معدتك حساسة. سأضع القهوة على النار.
فقال بهدوء:
- شكراً يا هولي.
- لأجل القهوة؟
- لأجل ذلك ولعدم إلقائك أسئلة.
كانت القهوة لا تزال على النار، عندما سمعت قرعاً مهذباً على الباب.
- نيال!
ونظرت فاغرة الفم إلى الرجل الطويل الذي ناولها حزمة صغيرة.
- ما الذي تفعله هنا؟
أحاط نيال خصرها بذراعه بحزم، وضمها إليه، ثم دخل الشقة ورفس الباب خلفه.
- علينا أن نتحدث.
- هذا حسن.
وافقت على ذلك دون أن تفهم جو التوتر الذي كان ينبعث منه.
- كيف حال توم؟
تمتمت بذلك وهي تطبع قبلتين صغيرتين على وجنتيه.
- ما الذي تريد أن تتحدث عنه؟
فحوّل عينيه عنها مراوغاً:
- أردت أن أتمنى لك حظاً سعيداً.
هذا بينما حدث نفسه بأنه جبان حقاً.
- هل هذا كل شيء؟

- أول يوم في عملك الجديد. هل نسيت؟ أم أنك فقط بالغة الهدوء والثقة بالنفس؟
- أتمنى ذلك.
لماذا تشعر بأنه يتجنب قول شيء ما؟
- همم... هذه رائحة طيبة.
وأخذ يتشمم رائحة القهوة.
- هل أنت متوترة الأعصاب؟
وبدا عليه الاهتمام. متوترة الأعصاب..
هذا ممكن. لماذا لم يخطر في بالها حتى هذه اللحظة كيف أن هذا الوضع البريء قد يساء تفسيره؟ ولم تستطع منع نفسها من النظر بتوتر إلى باب غرفة النوم.
- قليلاً.
قالت هذا وهي ترقب ضيق عيني نيال وهما تتبعان اتجاه عينيها.
- الأمر هو أنني لم أنم جيداً الليلة الماضية.
فكرت في أن تنتهي من شرح هذه المسألة الآن.
فإذا بكين يدخل، بصدره العاري وهو ينشف شعره بمنشفة قائلاً:
- تماماً حسب أوامر الطبيب...
ورأى نيال، فسكت وقد بدا عليه الإرتباك.
- نيال، هذه مفاجأة.
وبدا واضحاً من لهجته أنها ليست مفاجأة سارّة.
- مفاجأة لكلينا يا صديقي وزميلي ورفيقي القديم...
سخرية نيال البطيئة الثلجية جعلت هولي تجفل وكين يقطب جبينه بارتباك حقيقي.
- كانت هولي تخبرني لتوّها أنها لم تنم جيداً الليلة الماضية.
فقال كين معتذراً:
- آسف كان ذلك بسببي.

وتأوهت هولي. كيف لم يستطع كين أن يرى هذه الدلائل الخطرة للغاية؟ إن نيال ينضح بالشكوك والعداء الآن.

- نيال... هذه ليست...

كانت تحاول جهدها أن تخنق هذه المهزلة في مهدها.

وصدرت عن نيال ضحكة قبيحة، وتقدم خطوة إلى الأمام ووجه لكمة حاقدة إلى فك الرجل الآخر الذي أخذ على غفلة، فترنّح إلى أن ارتطم بالحائط ثم انزلق على الأرض.

اندفعت هولي إلى الأمام لتمسك بآنية خزفية كانت روينا تقول مزهوة إنها إحدى أفضل أعمال فناني الخزف العصريين في البلاد. لكنها وصلت بعد فوات الأوان. وتأوهت وهي ترى الآنية الثمينة شظايا متناثرة على الأرض.

ضربت قدمها الصغيرة على الأرض وحملقت في نيال وهي تصرخ ثائرة:

- انظر ماذا فعلت!.

- من المؤسف أنك لم تُظهري الإحترام نفسه لبقية ممتلكات روينا.

وأشار برأسه في اتجاه كين لاوياً شفتيه بسخرية:

- لقد خرجت حقاً من تحت ظلها مليئة بروح الانتقام أليس كذلك؟

شعرت هولي بغضبها يلتهب وهي تدرك تلميحه الحقير هذا. ربما اعتقد أنها قضت الليل برفقة صديق أختها هذا مدفوعة للانتقام من تفوقها عليها.

هل هذا ما ظنه بها؟ تساءلت عن ذلك شاعرة بالغثيان.

وما إن أخذت تفكر في هذه الإهانة، حتى بادرها بتفسير أكثر دناءة.

- لو كنت أعلم أنك ترغبين في علاقة عابرة كهذه، لسهّلت عليّ الأمور.

فصرخت فيه:

- لا أنوي تسهيل الأمور عليك.

- أخبريني بشيء لا أعرفه.. أنت لم تفعلي سوى أن قلبت حياتي رأساً على عقب منذ اللحظة التي دسست فيها نفسك بمكر...

- دسست نفسي؟

وفغرت فاها ذاهلة غير مصدقة. هل هو جاد؟

- أنا لم أدس نفسي على الإطلاق. يا ليتني لم أتعرف عليك يوماً.

قالت هذا بحقد بالغ.

- هناك دوماً مفارقات مضحكة تدعو إلى السخرية...

تمتم كين بذلك وهو ينظر إلى الشظايا الخزفية المتناثرة، ومد يده يلمس بحذر شفته التي تورمت بسرعة.

كان لصوت كين غير المتوقع تأثير راعد على نيال الذي كان، في حمى الشجار، قد نسي غريمه وعمقت هالة العنف حوله.

- ومن يهتم بحق جهنم؟

انفجر يقول غاضباً وعيناه تلمعان احتقاراً:

- انهض يا تايلر.

واستدارت نظراته الملتهبة إلى هولي.

- ولا تتوقعي مني أن أصدق أي قصة قد تختلقينها.

- هي لم تكن كذلك.

وقذفته بنظرة احتقار متغطرسة، ثم راحت تهتم بكين. تصلبت يداه حتى انفجرت مفاصلهما، وتحجرت عيناه وهو ينظر إلى هولي وهي منحنية على كين بقلق... كين صديقه. كل ذلك الكلام عن كين وروينا لم يكن سوى ستار، وصدّق هو ذلك كأي مغفل.

- لا تنهض يا كين. وإلا ضربك مرة أخرى.

قالت له هذا بسرعة. فقال كين مشاكساً:

- لا تراهني على ذلك. لقد فاجأني.

فقال نيال باللهجة نفسها:

- هناك طريقة واحدة لمعرفة ذلك. هل تتصل بها أم هي التي تتصل بك؟ ماذا تسمي هذا؟ مستشارها.

قال نيال هذا صارفاً بأسنانه.

- إذا لم يكن بإمكاني قضاء الليل دون رجل، هل تعني هذا؟

قالت هذا باحتقار. يا للرجال وغرورهم. وهزت كتفيها اشمئزازاً. وبدت لها فجأة حياة العزوبة جذابة للغاية!.

- أرجوك ألا تنزف دماً على سجادة روينا.

قالت هذا ضارعة عندما رأت كين يحاول النهوض.

- وأرجوك بحق الله يا نيال، كفى حملقة بهذا الشكل. إنك تجعل من نفسك أحمق كبيراً.

قالت هذا بمرارة.

- الحماقة تعمّ المكان.

تمتم كين بذلك شاعراً فجأة بالتعاطف مع الرجل الذي ضربه.

لم يعرض نيال أي مشاعر مماثلة من الصداقة وهو يستدير بغضب إلى رفيق الدراسة ويرد بحدة صبيانية:

- عندما أريد رأيك، يا تايلر، سأسألك عنه.

- ما معنى هذا؟

وضعت هولي يديها على وركيها وأخذت تنقل نظراتها بين الإثنين.

- بحق الله عليكما، إنضجا كلاكما!.

ابتسم كين مرغماً وهو يجاهد لكي يقف.

- نعم، يا سيدتي.

وأمسك برأسه بين يديه بعدم ارتياح واضح.

- حسناً، ليس عليك أن تلوم سوى نفسك.

قالت هذا بقسوة وقد تبدّد عطفها إلى حد بعيد، فقال يفضي إليها.

- هذا يجعل الأمر أسوأ.

- إذا كنت لا تستطيع السير، ربما عليك البقاء بعيداً عن سريرها.

عند ذلك غضبت هولي:

- لقد ذهبت بعيداً، يا نيال، فأنت تتصرف كالغيور.

أظلمت عينا نيال، وتصلب جسمه غضباً. سيجعلها تريده إلى حد

يجعلها تتوسل إليه فيتركها هو. نعم.. هذا ما ينبغي أن يفعل. وأخذ يفكر باكتئاب دون أن يجد تعزية في أفكاره المظلمة عن الانتقام.

- أنا طبعاً غيور، يا امرأة! وأي رجل لا يكون كذلك وهو يجد المرأة التي كان من الغباء بحيث أحبها وقد أمضت الليل مع غيره.

حدث انفجار صامت داخل رأسها:

- ماذا قلت؟

ألقى نيال رأسه إلى الخلف بحدة وكأنه تلقى لكمة. فقال بجهد واضح لتغيير الموضوع:

- قلت إنني سأشوّه وجهه الجميل هذا.

وكان رأي هولي أن وجه نيال أجمل بكثير، فقالت:

- كلا، لم تقل ذلك.

- ربما، لكنني سأفعل ذلك على أي حال.

كان كين ينظر إليهماوعلى وجهه المرضوض علامات السخرية.

- حسناً، أنت تعلم أين ستجدني يا نيال إذا شعرت برغبة للقيام بشيء كهذا.

وتجاهل فحيح نيال العنيف وانحنى يقبّل هولي على وجنتها.

- شكراً يا هولي...

تأثرت عندما لم يتراجع إزاء غضب نيال وهو يلتفت ببطء لينظر إلى نيال مباشرة:

- لتنازلك لي عن المرأة التي تحب.

- قميصك... وسترتك...

تمتمت هولي بذلك وهي تندفع إلى غرفة النوم ثم تعود وهي تحملهما، مستعجلةً إيّاه.

وسأله نيال بارتياب:

- إلى أين تظن نفسك ذاهباً، يا تايلر؟

- إلى البيت، أيها الزميل، كان ينبغي أن أدعوك، لكنني أظن أن لديك

www.elromancia.com

شيئاً أفضل تقوم به.

وألقى على هولي نظرة ذات معنى.

كان يبدو في حال سيئة، وشعرت هولي بالذنب لأن أنانيتها جعلتها تستعجل ذهابه. وأرادت أن تعوّض عن سلوكها القاسي، رغم أن كل ما كانت تفكر فيه كان ذلك التوقع المتنامي في داخلها... لقد قالها، قالها حقاً... نيال يحبني!

- أنت لن تقود السيارة، أليس كذلك يا كين؟

- الحقيقة يا هولي، ليس لديّ أدنى فكرة عن المكان الذي تركت فيه سيارتي.

ومد يده إلى جيب سترته.

- محفظة نقودي. لا أظنك...

أخرجت هولي النقود من حقيبة يدها الملقاة على مائدة المطبخ، ثم ناولته المبلغ الموجود فيها.

- لقد قلتها من قبل، أنت ملاك الرحمة.

فضحكت هولي.

- الوداع يا كين.

- آه، هولي.. أنت لن تذكري هذا إلى... أحد من من فضلك.

ولم تكن معرفة من كان يعني بذلك بالذات تتطلب ذكاءً بالغاً. وأومأت متفهمة. وعندما انغلق الباب خلفه، سألت نيال بلطف:

- أنت لم تجب عن سؤالي، يا نيال.

فأجاب مجفلاً:

- ماذا؟

- لا تتظاهر بالصمم. لقد سمعت.

لا بدّ من أنه ساذج إذا لم يستشفّ من الحديث الذي تبادلاه أنهما ليسا عاشقين. وابتلع نيال ريقه.

- الليلة الماضية أنت لم... أليس كذلك؟

ابتسمت هولي له، مستمتعة بضيقه الواضح. إنه يستحق أن يتألم... أتراه قال حقاً ما سمعته؟

- أبداً؟

- يبدو عليك خيبة الأمل. في الواقع، لقد غاب عن الوعي.

- ولكن عليك أن تعترفي بأن الأمر كان يثير الشبهات.

- بالنسبة إلى شخص لا يعرف ما هي الثقة.

وابتسمت بعذوبة.

فصرف نيال بأسنانه.

- أنا فقط لا أستطيع أن أتصور أحداً لا يرغب فيك إلى درجة الجنون.

- لا تستطيع؟

وكان طبيعياً أن يبهجها هذا الرأي.

- أنت أجمل من رأيت من النساء وأكثرهن إغراء.

وأخذت نظراته الجائعة تحوم على وجهها.

- أنا أحبك... أنا مغرم بك يا هولي... منذ أن تعرفت إليك تقريباً، رغم أن ذلك استغرق مني وقتاً لأدركه أنا نفسي.

لم تستطع هولي أن تصدق أنها، هي الفتاة العادية، قد أثارت مشاعر رجل مثل نيال ويسلي بمثل هذا العمق.

- لكنك لم تعرفني إلا منذ وقت قصير يا نيال.

فتنهد نيال:

- وهذا جزء من المشكلة، أليس كذلك؟

وهزّ رأسه واجماً.

- أدركت أن الوقت ما زال مبكراً، فالناس لا يقعون في الحب بين ليلة وضحاها.

- أنت أدركت ذلك إذن.

لم تستطع أن تقاوم الفرصة التي سنحت لكي تسمعه يقولها مرة أخرى. وشعرت بالبهجة تغمرها. في حين صرف نيال بأسنانه، ورفضت نظراته

التحوّل عن وجهها، ثم تابع بسرعة:

- نعم. أنا أعرف أنك غير مغرمة بي. مع الوقت يتغير كل شيء. يمكننا أن نسير على مهل...

فخفضت هولي بصرها:

- لا أظن هذا.

شحب وجهه وقال وهو يشد على ساعديها بقوة:

- أنا أحترم مهنتك... لدي توم ولهذا لن أضغط عليك لإنشاء أسرة. ولكن لمَ لا نتزوج؟ أنا أعلم أن بإمكاني أن أسعدك إذا سمحت لي!.

قال هذا بعنف.

إذا هي سمحت! واغرورقت عينا هولي بسعادة خالصة فغالبت دموعها. ورفعت عينيها الدامعتين إليه. وبرصانة، أحاطت وجهه براحتيها وقد فاض الحب من عينيها:

- أنا أريد أطفالاً. كما أن الأمر ليس مستعجلاً...

فأشرقت ابتسامته:

- وهل يصلح أي أب لهؤلاء الأطفال؟

رأت نفسها سعيدة لرؤية ثقته المتغطرسة تعود إلى مكانها.

- أنا دقيقة في الاختيار.

وتأوهت بعنف وهي تتحسس ظهره بملامساتها.

- الثقة طبعاً ضرورية وهامة...

لم تستطع منع نفسها من أن تغيظه مداعِبةً، فصرخ بها وهو يقبل جبينها برقة:

- أيتها السافلة المنافقة، لا شك أنك، إذا رأيت أختك أو تارا في منزلنا، ستثور ثائرتك.

ضحكت هولي بسرور ومكر:

- لا أدري أيهما غيرتي منها أكثر... أعني لا أدري إذا كان بمقدوري حقاً أن أمنع...

وقطبت جبينها.

- أن تمنعي خفقان القلوب. بالنسبة إلى قلبي على الأقل.. لم أشعر نحو امرأة قط كما أشعر نحوك. أنت تصدقيني، أليس كذلك؟

وكان صوته ينبض بالمشاعر.

- نعم يا نيال. وأنا أبادلك الشعور نفسه. ولكن لا تلمني إذا أنا عجبت لكلامك هذا. ذلك أنك لم تفصح عن مشاعرك هذه، ولا مرة واحدة.

- لكنني طلبت منك أن تنتقلي إلى بيتي، لنعيش معاً.

- لأجل أسباب عملية فقط.

واحمر وجهها لابتسامته الماكرة فقالت:

- حسناً، ليست عملية تماماً. لكنني أعلم أن الحب لم يدخل في هذه الاتفاقية... صدقني، وإلا لتذكرت ذلك.

قالت هذا بجفاء:

- أردت أن أريك أنني الرجل المستعد لأن ينتظرك.

- آه، يا نيال. هذه أكثر الكلمات التي سمعتها شاعرية.

رفع كتفيه العريضتين بشيء من الخجل:

- هذا يحصل معي أحياناً. يا حبيبتي، الرجل لا يخبر المرأة التي تتعمّد القول إنها لا تحبه، بأنه غارق في غرامها، إلا إذا كان من الذين يحبون تعذيب أنفسهم.

- قلها مرة أخرى.

قالت له هذا بلهفة.

- ما هي؟

- كلمة (يا حبيبتي)... (يا حبيبتي).

فقال متكرّماً:

- يا حبيبتي.

وطوّقت هولي عنقه بذراعيها بسعادة مشدّدة من احتضانه قدر إمكانها.

وكان التعنيف في صوتها.

- أنا لا أحب الفشل. وهذا ما حصل لي مع تارا. كنا صغيرين جداً، وأنا، على الأقل، كنت سطحياً. لكننا أنجبنا توم فهل أندم على ذلك يا هولي..؟

فأجابته بسرعة:

- أنا أحبّه كثيراً، وأحبك أنت أيضاً.

فلمعت عيناه.

- ليس لديك فكرة عن مدى السعادة التي أشعر بها وأنا أسمعك تقولينها.

واشتدت ذراعاه حولها.

- كنت أظن أن أسرع طريقة أجعلك فيها تهرب مني هو أن أقول لك إنني أحبك.

- ربما كان الحق معك. فقد بقيت أنا زمناً أرفض ذلك.

وعبس ساخراً من نفسه.

- لقد استغرق الأمر بعض الوقت، لكنني أظنني أصبحت في النهاية مستعداً لزواج ناضج حقيقي. ماذا عنك؟

- أنا أشعر أنني ناضجة للغاية.

فضحك:

- يا لجهنم! تبدين وكأنك في الثامنة عشرة. الحمد لله إنك لست كذلك.

- هذا لن يكون مجرد زواج مناسب اذن؟

- وكيف ذلك؟

- حسناً، عليك أن تعترف بأن من المناسب جداً ألاّ تضطر إلى أن توضح لأسرتك بأنك تركتني.

- إذا كنت ستستمرين في النظر إليّ بهذا الشكل، يا صغيرة، سيكون عليّ أن أوضح لهم لماذا تزوجنا قبل أن يعودا.

- أحقاً؟

- حقاً.

وأخرج من جيبه علبة مخملية صغيرة.

- لقد وضعته عند الصائغ لتصغيره ولم أرجعه إلى الخزنة في المصرف.

وألبسها الخاتم الياقوتي الأزرق.

- إنه رائع.

- لا، أنت هي الرائعة، فلنذهب ونحتفل بروعتك في مكان ما.

وحملها بين ذراعيه بحماسة، فتأوهت ودفنت رأسها في صدره:

- آه، يا حبيبي، لا يمكننا ذلك.

- لا يمكننا؟

- لا أعني أنني لا أريد، بل أعني أن عليّ أن أكون في العمل بعد أربعين دقيقة.

ثم سألته بقلق:

- هل لديك مانع؟

- لدي مانع طبعاً! لكنني لن أضرب الأرض بقدمي، طالباً منك أن تختاري بيني وبين عملك.

ورقّت ملامحه وهو يمسك بذقنها.

- صدقيني يا هولي.

- أصدق ماذا؟

- أن بإمكانك أن تجمعي بيني وبين العمل.

وتساءلت كيف أصبحت محظوظة بهذا الشكل؟

- إذا كان عليّ أن أختار بينكما، يا نيال، سوف...

فوضع اصبعه على فمها:

- أتظنينني لا أعلم ذلك يا هولي؟

وكان في عينيه لمعان تملّك عنيف.

- لكنك تعلمين أنني ما كنت لأطلب منك هذا.

ابتلعت هولي الغصة العاطفية في حلقها وقالت:

ـ أعلم. في الواقع...

وأخذت تقول بعدم ثبات:

ـ يمكنني أن أتأخر إذا شئت...

حبس نيال أنفاسه. وقاوم هذا الإغراء، وقام بالتصرف اللائق رغم أنه آلمه، فقال مؤنباً:

ـ في يومك الأول؟ عيب يا امرأة. هيا البسي ثيابك قبل أن تتأخري.

مالت برأسها تنظر إليه بعينين ملتهبتين:

ـ أنا متشوقة للزواج وأظن أنني سأحبه كثيراً.

ـ آه، يا حبيبتي، ستحبينه. أتعهد لك بذلك.

قال هذا بلهجة مخلصة.

وصدقته هولي.

***

www.elromancia.com
مـــرمـــوريـــة